من روائع

الهدي النبوي

للأستاذ العلامة

د. محمد خليل الهراس

يرحمه الله تعالى

جمعها واعتنى بها

عبدالكريم بن عبدالمجيد الدرويش

دار طيبة للنشر والتوزيع

من روائع

الهدي النبوي

للأستاذ العلامة

د. محمد خليل هراس

يرحمه الله تعالى

جمعها واعتنى بها

عبد الكريم بن عبد المجيد الدرويش

دار طيبة للنشر والتوزيع

ⓒ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
هراس، محمد خليل
من روائع الهدي النبوي/ تحقيق عبد الكريم عبد المجيد الدرويش .ـ الرياض .
١٩٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك ٩ ـ ٧٠ ـ ٨٠٠ ـ ٩٩٦٠
١ ـ الحديث ـ جوامع الفنون ٢ ـ الحديث ـ شرح أ ـ الدرويش، عبد الكريم عبد المجيد (محقق) ب ـ العنوان
ديوي ٣، ٢٣٧ ٢٢/٠٩٨٧

رقم الإيداع: ٢٢/٠٩٨٧
ردمك: ٩ ـ ٧٠ ـ ٨٠٠ ـ ٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض – السويدي – ش. السويدي العام – غرب النفق
ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٢٧٧
WWW. Dartaiba.Com - E. mail: Taiba @ Dartaiba. Com

من روائع

الهدي النبوي

مقدمة المُعد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ وبعد.

أحمد الله – عز وجل – أن وفقني في إعداد هذا الكتاب: (**من روائع الهدي النبوي**)؛ وهو يتكون من عشرين مقالاً للأستاذ الدكتور العلامة/ محمد خليل هراس،؛كان – رحمه الله – قد كتبها في سلسلة من أعداد مجلة الهدي النبوي التي كانت تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة؛ تحت عنوان: (ركن السنة)؛ يشرح فيها فضيلته بأسلوبه السهل الممتنع، وعلمه المتدفق، وألفاظه الجذلة المعبرة عن روعة المعنىٰ وعظيم الفهم عشرين حديثًا من أحاديث الرسول ﷺ؛ تناول فيها عدداً كبيراً من الموضوعات التي يجب أن يعيها المسلم الوعي الكامل حتىٰ يستطيع أن يعبد الله – تبارك وتعالىٰ – العبادة الحق التي من أجلها خلق الله – جل وعلا – الإنسان، وأرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾** ﴾[الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

ثم أشكر لأبي الشيخ/ عبد المجيد محمد صالح .. توجيهاته لي؛ بأن من الواجب أن ينشر هذا العلم – مرة أخرىٰ – حتىٰ يطلع عليه المسلمون، وخاصة الشباب منهم فهم في حاجة ماسة إلىٰ كتاب الله يستهدوه وإلىٰ رسول الله يستفتوه.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرحم أستاذنا الدكتور العلامة/ محمد خليل هراس .. وجميع موتىٰ المسلمين الذين شهدوا له بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة، وماتوا علىٰ ذلك، وأن يتقبلنا جميعًا في مستقر رحمته ..

ولا تنس أخي القارئ كل من ساهم في نشر هذا الكتاب بدعوة صالحة بظهر الغيب ليرد لك الملك الموكل: ولك بمثل؛ وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

كتبه/ عبد الكريم عبد المجيد محمد صالح الدويش
مصر – حلوان – رقم بريدي ١١٤٢٢– ب ٣٢

حلوان: في يوم الأحد التاسع عشر من ربيع الآخر ١٤١٩هـ
الموافق الأول من شهر أغسطس ١٩٩٩م

ترجمة الكاتب(*)

- ولد عام ١٩١٥م في بلدة الشين – كفر الشيخ.
- بدأ تعليمه في المدارس الأزهرية عام ١٩٢٦م.
- تخرج من كلية أصول الدين .. جامعة الأزهر عام ١٩٤٠م.
- حصل علىٰ درجة الدكتوراة عام ١٩٤٥م، وكان موضوع الرسالة: (ابن تيمية السلفي ورده علىٰ مذاهب المتكلمين).
- شغل وظيفة أستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر.
- شغل وظيفة رئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا بجامعة أم القرىٰ (بمكة المكرمة) وقد تمت إعارته للمملكة العربية السعودية بطلب من جلالة الملك فيصل رحمه الله.
- توفي – يرحمه الله – في سبتمبر ١٩٧٥م بعد حياة علمية

(*) نقلاً عن مجلة التوحيد، السنة الخامسة والعشرون، العدد الأول صفحة ٥٧، بقلم الشيخ فتحي أمين عثمان وكيل جماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة.

حـافلة بالعـطـاء، التـقىٰ فـيـهـا بعـلمـاء أجـلاء مـن أمـثـال: فضـيلة الشيخ/ محمد حامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية.

كـمـا كـان من بين عارفيه فضيلة الإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، وكـان يقـدره حق قـدره ويعـرف له مكانته العلمية شيوخ كبار من أمثال:

فضيلة الشيخ/ عبد الرزاق عفيفي، وسماحة الشيخ/ عبد العزيز ابن باز.

كـمـا كان رفيقًا لفضيلة الشيخ/ عبد الرحمن الوكيل، ونائبًا له، عندما كان رئيسًا لجماعة أنصار السنة المحمدية.

وكـان من إخوانه الشيخ/ أبو الوفا درويش والشيخ/ محمد علي عبد الرحيم، الذي كان يثني عليه كثيراً.

وقد أبدىٰ نشاطًا ملحوظًا في العام الذي توفي فيه؛ حيث ألقىٰ عـدة مـحـاضـرات في طنطا، والمحلة الكبرىٰ، والمركـز العـام في القاهرة.

❐ كـان – رحـمـه الله – علىٰ قدر كـبير من التميز في دراسة العقيدة الصحيحة، وملمًا إلمامًا محيطًا بفكر الفرق المختلفة، ولديه القدرة

علىٰ أن يتكلم في موضوعات تحسبها لأول وهلة من أعقد قضايا الاعتقاد، ولكن الشيخ – رحمه الله – كان يملك القدرة علىٰ أن يجلي غامض الأمور.

- ولما كون – رحمه الله – جماعة أنصار السنة المحمدية بطنطا، وكان يلقي بمركزها محاضراته التي يحارب فيها البدعة، ويدعو فيها إلىٰ السُّنة بالحسنىٰ، وبأدلة من القرآن والسنة كان لها أكبر الأثر في رد كثير من الناس إلىٰ الحق والصواب، وكان من أثرها – أيضًا – أن غضب أعداء الحق فتحركوا يشكونه إلىٰ المسئولين وذلك لتشويه مسلكه، وكانت حجتهم قائمة علىٰ أنه يكره الأولياء! غير أن هذا الأمر قد وقع في يد رجل ذكي سرعان ما أدرك الحق، وعرف الباعث علىٰ الشكوىٰ؛ فنصحهم بالكف عن ذلك لأن الشيخ يدعو إلىٰ الحق.

- وكان منهجه – رحمه الله – يمتاز بالتركيز الشديد في القضايا التي يتعرض للحديث عنها، ومن أمثلة ذلك : شرحه للعقيدة الواسطية، ومحاضراته في الفلسفة الشرقية والإغريقية.

- وكان يتولىٰ باب الإفتاء في مجلة الهدي النبوي، وفي تلك الفترة كتب مجموعة من المقالات تحت عنوان: عقيدة القرآن والسنة،

وأخرىٰ تحت عنوان: ركن السنة[١]؛ وهذا يؤكد لنا أنه – رحمه الله – كان غيوراً علىٰ السُّنة النبوية غيرة قد تصل إلىٰ درجة الحدة في مواجهة من يردون الحديث الشريف الصحيح، فجزاه الله خير الجزاء.

وصدق رسول الله ﷺ: (**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء**)[٢].

وصلىٰ اللَّهم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

<١> تلك المقالات هي موضوع هذه الرسالة.

<٢> رواه البخاري في العلم (١٠٠)، ومسلم في العلم (٢٦٧٣).

مقدمة الكاتب(*)

تصدر مجلة (الهدي النبوي) في مستهل كل شهر عربي حاملة إلىٰ قرائها ألوانًا شتىٰ من المعرفة الدينية في التفسير والمعتقد والفقه والتاريخ، والنقد لمختلف المذاهب والآراء المنحرفة عن هدي القرآن الكريم والسنة المطهرة، إلىٰ غير ذلك مما يجعل طلاب الحق يحرصون علىٰ قراءتها واقتنائها رغم غلاء ثمنها وصغر حجمها.

ولكن كثيراً من هؤلاء الأحباب كان يحس - رغم ذلك - بأن هذه المجلة ينقصها ركن من أعظم أركانها ودعامة من أهم دعاماتها، وذلك هو ركن السنة المطهرة.

إذ كيف يستقيم أن تخلو مجلة تحمل اسم (الهدي النبوي) وتنطق بلسان جماعة (أنصار السنة) من باب تعالج فيه موضوعات السنة؟

لهذا رأت أسرة المجلة أن تبادر إلىٰ سد هذا النقص، وقد وكلت إليَّ

(*) مجلة الهدي النبوي - المجلد: ٣٠ - العدد: ٦ - جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ.

القيام بهذه المهمة الجليلة.

وإني لأسأل الله العلي القدير أن يعينني علىٰ الوفاء بما اضطلعت به من ذلك، علىٰ خير ما يحبه ويرجوه جميع إخواننا، وأن يجعل هذا الباب فاتحة خير وبركة لهذه المجلة؛ إنه ولي التوفيق.

د/ محمد خليل هراس

❁ ❁ ❁

١ إنما الأعمـــال بالنيـــات (*)

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)**[1].

شرح الحديث

١- أما عن سند هذا الحديث فقد رواه يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص الليثي عن عمر ابن الخطاب، فلا يصح له طريق إلا عن عمر، ولكنه استفاض عن يحيىٰ بن سعيد حتىٰ قيل: إنه رواه عنه نحو مائتين وخمسين إنسانًا.

(*) مجلة الهدي النبوي، المجلد (٣٠) العدد (٦) جمادىٰ الآخر ١٣٨٥هـ.

[1] رواه الجماعة: البخاري في كتاب بدء الوحي ١/٩ (١)، ومسلم في كتاب الإمارة، ٣/١٥١٥ - ١٥١٦ (١٥٥) وغيرهما.

ومثل هذا الحديث يسمىٰ – في اصطلاح المحدثين – بالحديث المشهور.

وقد خرجه جميع أصحاب الكتب المعتمدة ما عدا مالكًا فإنه لم يخرجه في الموطأ رغم أن كثيراً من المحدثين كالشيخين والنسائي، قد رووه عن يحيىٰ بن سعيد من طريق مالك.

٢– وأما عن منزلة هذا الحديث فهو يعتبر بحق أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، بل هو أهمها؛ فإنه يؤسس قاعدة كبرىٰ من القواعد التي ترجع إليها الأعمال كلها.

ولهذا قال عنه بعض العلماء: إنه ثلث العلم.

ووجهه الشوكاني: بأن كسب العبد إنما يكون بالقلب والجوارح واللسان، وعمل القلب أرجحها؛ لأنه يكون عبادة بانفراده دون الآخرين.

ولك أن تقول: إنه نصف العلم؛ لأن كل عمل لا يكون صحيحًا إلا إذا توفر له شرطان:

أحدهما: باطن، وهو إخلاص النية فيه، والثاني: ظاهر، وهو المتابعة لرسول الله ﷺ، فلا ينفع إخلاص بلا متابعة، بل يكون العمل

حينئذ بدعة مذمومة، كما لا تنفع متابعة بلا إخلاص، بل يكون العمل نفاقًا ورياء.

فهذا الحديث متضمن لبيان حكم الجزء الباطن من العمل الذي هو بلا شك أعظم الجزئين.

٣- قوله (**إنما الأعمال بالنيات**)؛ هذه الجملة تفيد الحصر من جهتين:

الأولىٰ: أنها مبدوءة بـ«إنما» وهي من صيغ الحصر، والثانية: أن كلمة «الأعمال» فيها جمع محلىٰ باللام، فيفيد الاستغراق، وهو مستلزم للحصر.

كأنه قال: كل عمل بنية، فلا عمل إلا بنية. ولابد في هذه العبارة من تقدير محذوف: إما الصحة، وإما الكمال؛ فمن جعل النية شرطًا كان تقدير الكلام عنده: إنما صحة الأعمال بالنيات. ومن لم يجعله شرطًا قدر: إنما كمال الأعمال بالنيات.

قال ابن دقيق العيد في شرح (عمدة الأحكام): وقد رجح الأول بأن الصحة أكثر لزومًا للحقيقة، فالحمل عليها أولىٰ، لأن ما كان ألزم للشيء كان أقرب إلىٰ خطوره بالبال.

وتظهر ثمرة هذا الخلاف في الأعمال التي تكون وسيلة لغيرها كالوضوء والغسل؛ فإنه لا خلاف في أن النية شرط في الأعمال المقصودة لذاتها كالصلاة، وأما الوسائل فمن قدر الصحة جعلها شرطًا فيها كذلك، ومن قدر الكمال كالحنفية لم يجعلها شرطاً.

ولا شك أن القول بفرضية النية لكل عمل شرعي هو الحق الذي لا مراء فيه؛ فإن الله عز وجل قد تعبد عباده بالوسائل، كما تعبدهم بالمقاصد.

وقد جاء في الحديث الصحيح: (**ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات**؟. قالوا: بلىٰ يا رسول الله، **قال: إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخطا إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**)[1].

ولا شك أن كل واحد من هذه الثلاثة وسيلة لا غاية؛ ومع ذلك قد رتب عليه محو الخطايا ورفع الدرجات؛ وقد فسرت الأمانة في قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ**﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ بأنها الغسل من الجنابة.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة (٢٥١).

وإذاً فلا معنىٰ للتفريق بين الأعمال الشرعية ما دامت كلها مأموراً بها، وقد تعلق بها خطاب الله لعباده، فهذه التفرقة مبتدعة ولا معنىٰ لها.

وكيف يجوز أن يقال لمن أمر الماء علىٰ أعضاء الوضوء من غير نية أنه توضأ؟ مع أنه لم يقصد بفعله امتثال أمر الشرع له بالوضوء.

٤- وقوله: (**وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**)؛ قيل: إنها في معنىٰ الجملة التي قبلها، فتكون مؤكدة لها، والمراد بها تحقيق اشتراط النية والإخلاص في الأعمال.

وهذا قول بعيد، بل الحق أن هذه الجملة تفيد معنىٰ زائداً علىٰ المعنىٰ الذي أفادته الجملة السابقة.

فإن الأولىٰ إنما أفادت أن العمل يتبع النية ويصاحبها فلا يعتد به بدونها، وأما هذه فأفادت أن من نوىٰ شيئًا يحصل له ثوابه، وما لم ينوه لم يحصل له، وأن الثواب في العمل إنما يكون علىٰ قدر النية فيه.

بل تدل كذلك علىٰ ثبوت الأجر لمن نوىٰ خيراً ولم يعمله، كما

جاء في الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: (**ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة**)[١].

وعلىٰ أن بعض المباحات إذا اقترنت بها نية صالحة أثيب عليها فاعلها، كما في قوله عليه السلام: (**وفي بضع أحدكم صدقة**)[٢].

وقوله: (**إن الله ليأجُر في كل شيء حتىٰ اللقمة يرفعها العبد إلىٰ فم امرأته عند الملاعبة**)[٣].

وكما لو نوىٰ بطعامه أو بنومه أن يقوىٰ علىٰ طاعة الله عز وجل.

فهذه كلها أعمال مباحة في الأصل؛ والمباح لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، ولكن لما صاحبتها نية صالحة صارت طاعات يستحق فاعلها المثوبة.

<١> البخاري في كتاب الرقاق (٦٤٩١) عن ابن عباس. وبنحوه في كتاب الإيمان (٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الإيمان ١/١١٧ (٢٠٣، ٢٠٧)، وأحمد ١/٢٢٧، ٢٤٢، والترمذي في كتاب التفسير (٣٠٧٣).

<٢> رواه مسلم في كتاب الزكاة (٥٢).

<٣> البخاري في كتاب الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في كتاب الوصية (٨).

٥- وأما قوله: (**فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله**)؛ فظاهره أن الجواب عين الشرط، مع أنه لا بد من تغايرهما حتىٰ يكون الكلام مفيداً.

ولهذا يحتاج الكلام هنا إلىٰ حمل كل منهما علىٰ معنىٰ يخالف معنىٰ الآخر؛ فيكون تقديره مثلاً: فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله نية وقصداً فهجرته إلىٰ الله ورسوله حكماً وشرعاً، فيكون متعلق كل منهما غير متعلق الآخر، وعلىٰ هذا فلا اتحاد بينهما.

ويجوز أن يكون الكلام علىٰ تقدير خبر محذوف: أي فهجرته إلىٰ الله ورسوله مقبولة أو محمودة، والمراد علىٰ كل حال واضح، وهو أن هجرته واقعة موقعها من الرضىٰ والقبول.

والهجرة في اللغة الترك، ويقال: هاجر إلىٰ كذا إذا انتقل عن غيره إليه، وأما في لسان الشرع: فهي ترك ما نهىٰ الله عنه، وقد وقعت في الإسلام عدة هجرات منها:

○ الهجرة إلىٰ الحبشة - أول الأمر - عندما اشتد بالمسلمين الأذىٰ، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة وقال لهم: (**إن فيها ملكًا**

لا يظـلم عنـده أحد)[١] .

وممن هـاجـر تلك الهـجرة عـثـمـان بن عـفـان وزوجتـه رقـيـة بنت رسـول الله ﷺ وجـعفر بن أبي طـالب وعبـد الله بن مسـعود – رضي الله عنهـم أجمعين – ، وقد وقعت هذه الهجرة مرتين.

○ الهجرة من مكة إلىٰ المدينة بعد بيعة العقبة الثانية التي بايع فيها الأنصار رسول الله ﷺ علىٰ أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وكانت أعظم حادث في الإسلام، وكانت تلك الهجرة فرضًا علىٰ كل قادر، ولا يجوز أن يتخلف عنها أحد إلا من عذر.

وقد بطل حكمها عام الفتح بعدما صارت مكة دار إسلام، وفي الحديث الصحيح: **(لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا)**[٢] .

○ هجرة من أسلم من القبائل إلىٰ المدينة، وقد جعلها الله شرطًا للولاية والنصرة بينهم وبين المسلمين، كما قال سبحانه في آخر سورة

<١> ابن إسحاق في السير والمغازي (ص ١٩٤) بنحوه.

<٢> رواه البخاري في كتاب جزاء الصيد (١٨٣٤)، ومسلم في كتاب الحج (٤٤٥).

الأنفـال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقىٰ في الأرض شرار أهلها)**<1>.

○ وأما الهجرة اللازمة لكل مسلم في كل حال فهي أن يهجر ما نهىٰ الله عنه من الفواحش كما قال عليه السلام: **(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس، والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه)**<2>.

وأن يهاجر إلىٰ الله عز وجل بالإخلاص وتجريد التوحيد فيؤلهه وحده، تعظيمًا ومحبة ومخافة وذلا ورجاء وطمعًا وتوكلاً واستعانة

<1> رواه أبو داود في كتاب الجهاد (٢٤٨٢). وهو في ضعيف الجامع الصغير (٣٢٥٩).

<2> رواه البخاري ومسلم مختصراً، ورواه أحمد (٦/ ٢١)، وابن حبان (٢٥ موارد)، والحاكم (١/ ١٠). وهو في صحيح الجامع (٦٥٨٦).

وتوبة وإنابة، وسؤالاً ودعاء، إلىٰ غير ذلك من أنواع العبادة فلا يجعل منها شيئًا لغيره.

وأن يهاجر كذلك إلىٰ رسول الله ﷺ بالمتابعة والانقياد فلا يأخذ دينه إلا منه، ولا يقدم قول أحد علىٰ قوله، ولا حكم أحد علىٰ حكمه.

فهذه هجرة لا يتحقق إيمان أحد ولا إسلامه إلا بها.

○ قوله: (**ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**).

يعني: من قصد بهجرته أن يصيب عرضًا من أعراض الدنيا كغنيمة ونحوها أو قصد إلىٰ التزوج من امرأة يحبها، فإن هجرته باطلة لا اعتداد بها ولا ثواب له عليها إلا ما يحصل له من تلك الأمور التي قصد إليها بهجرته.

وأكتفي بهذا القدر في شرح هذا الحديث العظيم خشية الإطالة وإن كان المقام لا يزال في حاجة إلىٰ بسط كثير.

٢ الحلال بيِّن والحرام بيِّن (*)

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس؛ فمن اتقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام؛ كراع يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمىٰ، ألا وإن حمىٰ الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**)[1].

شرح المفردات

(**الحلال**): مصدر حل الشيء يحل حلاً فهو حلال، إذا كان مأذونًا في تعاطيه من جهة الشارع.

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣٠ – العدد: ٧ رجب ١٣٨٥هـ.

[1] رواه الشيخان: البخاري في كتاب الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٠٧).

(**الحرام**) : مصدر حرم يحرم حرمة فهو حرام، إذا كان الشارع قد منع منه ورتب علىٰ فعله حداً أو وعيداً.

(**المشتبهات**) : وهي أمور أخذت شبهًا بالحلال وشبهًا بالحرام؛ بسبب تعارض الأدلة فيها؛ ولهذا يشتبه أمرها علىٰ كثير من الناس فلا يدرون حكمها؛ أمن الحلال هي أم من الحرام؟.

(**فمن اتقىٰ الشبهات**) : يعني ابتعد عنها واحترز من الوقوع فيها.

(**فقد استبرأ لدينه وعرضه**) : أي طلب لهما البراءة؛ يعني النقاء والسلامة والخلو من القادح؛ والعرض هو موضع المدح والذم من الإنسان.

(**الحمىٰ**) : هو ما يحميه الإنسان ويمنع غيره من الاعتداء عليه، وكان من عادة الملوك في الجاهلية إذا قال أحدهم: أرض كذا في حماي؛ صارت حرامًا ممنوعة لا ترعاها إلا ماشية ذلك الملك.

(**مضغة**) : قطعة من اللحم قدر ما يمضغه الإنسان.

(**صلحت**) : يقال صلاح الشيء إذا بلغ حد الاعتدال والاستقامة، وضده الفساد وهو الخروج عن ذلك.

(**القلب**): هو ذلك الجسم الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من تجويف الصدر، وقيل سمي قلبًا لكثرة تقلبه؛ كما قال الشاعر:

وما سُمّي الإنسان إلا لنسيه ولا القلـب إلا أنـه يتقـلـب

فقه الحديث

لعل مما لا نزاع فيه أن هذا الحديث يعتبر دستوراً كاملاً في باب الحلال والحرام؛ فهو يضع لنا القواعد الأساسية التي نستطيع أن نطبقها علىٰ ما لا يحصر من جزئيات المسائل والأحكام.

إذ يقسم الأشياء من حيث الحل والحرمة إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحلال البين؛ وهو كل ما علم حله بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة بحيث لا يشتبه أمره علىٰ أحد؛ كقوله تعالىٰ بعد ذكر المحرمات من النساء: ﴿ **وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ [النساء: ٢٤].

وكقوله من سورة المائدة: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ**

غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥].

وهكذا كل ما ورد في الكتاب أو السنة مصدراً بلفظ الحل أو الإباحة أو الإذن أو ما يفيد ذلك.

والقسم الثاني: الحرام البين؛ وهو ما علمت حرمته كذلك بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة بأن ذكر بوصف الحرمة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٣] الآية.

وكقوله: ﴿ **وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا** ﴾ [المائدة: ٩٦].

وكقوله من سورة الأنعام: ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وكقوله عليه السلام: (**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات**)[1].

أو ذكر بنفي الحل كقوله سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا** ﴾ [النساء: ١٩].

---

[1] رواه البخاري في كتاب الاستقراض (٢٤٠٨).

أو ورد بصيغ النهي الدال علىٰ الحرمة لاقترانه بحد أو وعيد أو نحو ذلك؛ فهذا كله مما يعلم أنه حرام، دون أدنىٰ اشتباه أو تردد.

وأما القسم الثالث: فهي أمور بين الحلال والحرام سماها الحديث بالمشتبهات؛ لأن فيها شبهًا من كل من الحلال والحرام، وقد تكافأت فيها أدلة الحل والحرمة، فيتردد الذهاب في الحكم عليها.

وهذه هي التي حث الحديث علىٰ توقيها والاحتراز من الوقوع فيها حتىٰ لا تفضي إلىٰ الوقوع في الحرام الصريح، وفي البعد عنها ضمان لسلامة دين المرء وعرضه؛ فالتقوىٰ والورع يقتضيان التنزه عن الوقوع في المشتبهات.

وقد ورد في الحديث: (**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتىٰ يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس**)[1].

ولكن لا ينبغي أن يزيد هذا التوقي حتىٰ ينقلب إلىٰ نوع من الحرج والضيق.

---

(١) رواه الترمذي في سننه في صفة القيامة (٢٤٥١)، وابن ماجه في سننه (٤٢٥١).

كـمـا ورد أن بعض العلمـاء مكث ببلد ثلاث سنين لا يأكل من فاكهتها، قيل له: إن بها بستان ليتيم؛ فإن الله لم يحرم علينا أن نبيع لليتامىٰ وأن نشتري منهم، ما دمنا نتحرىٰ العدل في الكيل والوزن.

وكما لو أفتىٰ بعض المتنطعين بحرمة التعامل بين الناس بسبب فشو الربا واختلاطه بالأموال؛ فإن ذلك معناه توقف دولاب الحياة وفساد المعيشة.

ولعل من المناسب أن نذكر هنا نماذج لتلك الأمور المشتبهات حتىٰ يتضح أمرها ويعرف حكم غيرها بالقياس عليها:

١- كل ما تنازع فيه العلماء بين الحل والحرمة من أنواع الأطعمة والأشربة والمناكح واستوت فيه أدلة الفريقين، ولم يوجد ما يرجح أحدهما علىٰ الآخر؛ فإن التوقي والاحتياط يقتضي تغليب جانب الحرمة، وهذا معنىٰ ما قيل: إنهم كانوا يتركون سبعين بابًا من الحلال مخافة الوقوع في باب واحد من الحرام.

روي أن سعد بن أبي وقاص اختصم هو وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد: هو ابن أخي عتبة عهد إليَّ به قبل موته.

وقال عبد بن زمعة: هو ابن أبي من جاريته، وولد علىٰ فراشه.

فقضىٰ به النبي ﷺ لعبد بن زمعة مع وجود شبهه بعتبة؛ وقال: (**الولد للفراش وللعاهر الحجر**)؛ ثم قال: (**احتجبي منه يا سودة**)[١].

فأمره ﷺ لأم المؤمنين سودة بنت زمعة أن تحتجب منه مع أنه صار أخاها بهذا الاستلحاق، إنما هو من قبيل التنزه والاحتياط؛ وذلك لوجود شبهه بعتبة.

وروي كذلك أن عدي بن حاتم سأل النبي ﷺ فقال: إني أرسل كلبي وأذكر اسم الله عليه، فأجد معه علىٰ الصيد كلبًا آخر، فقال له: (**لا تأكل، فإنما سميت علىٰ كلبك، ولم تسم علىٰ غيره**)[٢].

فمقتضىٰ أنه أرسل كلبه وسمىٰ عليه أن يكون صيده حلالاً، ولكن وجود كلب آخر معه أورث شبهة فكان الاحتياط تركه.

<١> رواه البخاري في كتاب الوصايا (٢٧٤٥)، ومسلم في كتاب الرضاع (٣٦، ٣٧).

<٢> رواه البخاري في كتاب الوضوء (١٧٥)، ومسلم في كتاب الصيد (٣، ٥).

٢- كل ما هو مجهول الحال ومحتملاً للأمرين من الحل والحرمة وليس هناك ما يدل علىٰ أحدهما فإن الأولىٰ التنزه عنه، كما روىٰ أن النبي ﷺ وجد تمرة علىٰ فراشه فقال: (**لولا أني أخاف أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها**)[١]. فتركها لهذا الاحتمال.

وليس من قبيل المشتبهات ما ذكره بعض العلماء من أمور علم حلها أو حرمتها بيقين، ثم شك في زوال ذلك؛ فإنها تبقىٰ علىٰ أصلها من الحل أو الحرمة حتىٰ يثبت ضده بيقين؛ فإن اليقين لا يزول بالشك، وإنما يزول بيقين مثله.

وليس من المشتبهات - كذلك - أن يجوز نقيض ما ترجح عنده لأمر موهوم لا أصل له؛ كأن يترك استعمال ماء باق علىٰ أوصافه مخافة تقدير نجاسة، أو يترك الصلاة في موضع مخافة أن يكون فيه بول قد جف، أو أن يغسل ثوبه من توهم نجاسة لم يرها.

فهذا يجب ألا يلتفت إليه؛ فإن التوقف لأجل ذلك التجويز هوس، والورع منه وسواس شيطان؛ إذ ليس فيه من معنىٰ الشبهة شيء، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

<١> رواه البخاري في البيوع (٢٠٥٥)، ومسلم في الزكاة (١٦٤).

٣ لا حسد إلا في اثنتين (*)

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**)(١).

شرح المفردات

(**لا حسد**): لا نافية للجنس، وحسد اسمها، والخبر محذوف تقديره: جائز أو محمود.

والحسد في الأصل هو تمني زوال نعمة المحسود، سواء تمناها لنفسه أم لا.

وسببه أن الطباع مجبولة علىٰ الأثرة وحب الذات والميل إلىٰ الترفع علىٰ الجنس.

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣٠ – العدد: ٨ شعبان ١٣٨٥هـ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في كتاب العلم (٧٣)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ١ / ٥٥٩ (٢٦٨).

فإذا رأىٰ لغيره ما ليس له أحب أن ينتقل ذلك عنه إليه ليرتفع عليه، أو تمنىٰ زاواله عنه ليساويه.

والمراد بالحسد – هنا – الغبطة التي هي تمني مثل ما للغير من نعمة من غير أن تزول عنه.

وذلك لأن الحسد الحقيقي لا يمكن أن يكون جائزًا بحال من الأحوال، ولا في أي صورة من الصور، وإنما عبر عن الغبطة بالحسد لمشابهتها له في الصورة؛ إذ هي لا تخلو من المنافسة – غالبًا – وقيل: إن الحسد هنا علىٰ حقيقته، والكلام من قبيل المبالغة كما في قوله عليه السلام: (**لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين**)[1].

ويكون المعنىٰ حينئذ: لو كان لحسد في الخير مأذونًا فيه لكان في هاتين النعمتين فقط. فيكون في الحديث إشادة بفضلهما، وحث علىٰ المنافسة فيها. ولكن هذا الوجه بعيد لأنه يحتاج إلىٰ تقدير أداة شرط.

علىٰ أنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ما يدل علىٰ أن المراد بالحسد الغبطة.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب السلام (٢١٨٨).

(**إلا في اثنتين**) : هذا استثناء مفرغ من عموم الأحوال؛ وتقديره: لا حسد جائز في حال من الأحوال ولا في شأن من الشؤون إلا في شأن خصلتين اثنتين.

(**فسلطه علىٰ هلكته في الحق**) : التسليط التمكين والإقدار، يقال: سلطه علىٰ كذا فتسلط، أي تمكن وتحكم، والهلكة مصدر هلك يهلك من باب ضرب، ومثلها: الهلك (بضم الهاء وسكون اللام)، والهلاك والهلوك؛ المراد بهلكته في الحق إنفاقه وتضييعه في وجوه البر التي يحبها الله ويرضاها.

المعنى الإجمالي للحديث

في كثير من النفوس البشرية تجد بذور الشر والرذيلة كامنة خفية لكنها إذا تركت وأهملت ولم تجتث من أصولها نمت واشتدت ثم استوت قائمة علىٰ سوقها.

وحينئذ يصعب علاجها ويتعذر التخلص منها؛ ومن أخبث تلك البذور وأقذرها الحسد، وهو داء عضال، أشبه الأشياء في أمراض النفس بداء السل في أمراض الجسد؛ فكما أن المسلول يقذره الناس ويتبرمون به لما ينفث من صدره من دم وصديد، ويبالغون في الابتعاد

عنه حتىٰ لا يصيبهم أذاه، فكذلك الحاسد يرىٰ فيه الناس روحًا ملتهبة بالشر ملأىٰ بالضغينة؛ فهو لا يهدأ ولا يستريح، ولا يقر له قرار طالما رأىٰ الناس من حوله في نعمة ورغد من العيش.

ولهذا أمر الله نبيه ﷺ أن يستعيذ بالله من شر حاسد إذا حسد؛ ذلك لأن الحاسد غالبًا لا يقتصر علىٰ تمني زوال النعمة عن غيره، ولكنه يعمل لذلك جهد استطاعته.

ولهذا قلنا: إن الحسد في الحديث لا يمكن أن يكون محمولاً علىٰ حقيقته؛ لأن الحسد الحقيقي من أقبح الخصال في كل صوره وعلىٰ أي حال؛ إذ لا باعث عليه إلا الجبن وخور العزيمة وانحطاط الهمة والقعود عن اكتساب المعالي واغتنام الفضائل، وإلا التسخط علىٰ قضاء الله سبحانه.

ولكن المراد في الحديث الغبطة، والحرص عليها يسمىٰ منافسة، وهي محمودة في الطاعات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، ومذمومة في المعاصي، وجائزة في المباحات.

ومعنىٰ الحديث لا غبطة أفضل من الغبطة في هاتين الخصلتين لأنهما من أعظم خصال الخير.

١- أما الخصلة الأولىٰ فهي إنفاق المال وإهلاكه في وجوه البر وأبواب الخير حسبة لله تعالىٰ وابتغاء مرضاته، ولا شك أن المال من أعظم نعم الله علىٰ عباده؛ فهو نعم المورث للحمد، والكاسب للمجد، والذائد عن العرض، والمعين علىٰ نوائب الدهر.

ولكنه كثيراً ما يكون وسيلة للشر والعصيان وأداة للبطر والطغيان، فمن أوتي مالاً كثيراً ثم سلط علىٰ إهلاكه في الحق فهذا هو الذي أتم الله عليه النعمة، وهو الحقيق بأن يغبطه الناس، وأن يتمنوا مثل ما أوتي من خير.

وأما من آتاه الله مالاً كثيراً فحبسه عن مصارفه ولم يكسب به خيراً لآخرته، أو أنفقه رياء وسمعة وطلبًا للمحمدة وحسن الأحدوثة، أو كان إنفاقه له مصحوبًا بالمن والأذىٰ؛ فهذا لا يكون جديراً بالحمد والثناء بل لا يستحق إلا الاحتقار والازدراء، ومثله لا ينبغي أن يغبطه أحد بل يكون ماله وبالاً عليه ونقمة.

٢- وأما الخصلة الثانية فرجل أوتي الحكمة والعلم النافع فانتفع به في نفسه وعمل بمقتضاه ثم دعا إليه وعلمه الناس، فذلك هو الرباني الذي يدعىٰ عظيمًا في ملكوت السموات.

ولا شك أن الحكمة من أعظم ما يحب الله لعبده ويفتح عليه بها؛ قال تعالىٰ: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ**﴾ [لقمان: ١٢].

وقد فسرت الحكمة في بعض الروايات بالقرآن، ولا شك أن القرآن الكريم هو منبع الحكمة الصافي وموردها العذب، وهو الهادي إلىٰ الحق والداعي إلىٰ الصراط المستقيم.

فمن أوتي القرآن العظيم، وهدي لفهم دقائقه والكشف عن أسراره وما فيه من روائع الآيات الكونية وبدائع الأحكام التشريعية في الاقتصاد والاجتماع ونظام الأسرة والحدود والجنايات وقواعد الحرب والسلم والمعاهدات... ثم اتبع ذلك - كله - وطبقه علىٰ نفسه، ثم دعا الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن أحداً لم يؤت من الخير مثل ما أوتي، وكان جديراً أن يكون موضع الغبطة من جميع الناس؛ إذ

لا يحصل علىٰ هذه المرتبة العظيمة والمنصب الجليل إلا أولو العزائم القوية والنفوس النبيلة والأخلاق المرضية، أولئك هم الأدلاء علىٰ الحق الرافعون لمنار الدين والآخذون بيد البشرية الحائرة المعذبة.

وأما من آتاه الله القرآن والعلم النافع فلم يرفع به رأسًا، ولم يعلمه أحدًا، أو نشره في الناس رياء وسمعة وحبًا للمحمدة؛ فهذا بئس حامل القرآن هو؛ لقد جهل قدر ما أوتي من فضل ونعمة، واتخذه لأغراض دنيئة وغايات سافلة؛ فهو جدير بالذم من كل أحد.

فما أروع هذا الحديث وما دل عليه من فضل العلم والعمل به، ومن حث علىٰ اكتساب المال من وجوهه المشروعة وإنفاقه علىٰ جهات البر والإحسان. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

٤ فضيلة الصـــيام (*)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**الصيام جنة؛ فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم إني صائم. والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. يقول الله عز وجل: إنما يذر طعامه وشرابه من أجلي، فالصيام لي وأنا أجزي به، كل حسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به. للصائم فرحتان: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه**)[1].

شرح الحديث

لكل عبادة من العبادات التي شرعها الله عز وجل أثرها في تربية النفس وإصلاحها، وتهذيب السلوك البشري وتقويمه.

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣٠ – العدد: ٩ رمضان ١٣٨٥هـ.

[1] متفق عليه: البخاري في كتاب الصوم (١٨٩٤)، ومسلم في كتاب الصيام (١٦٤).

فالصلاة: تذكر العبد بربه، وتملأ قلبه من خشيته وتعظيمه وحبه، وتنفي عنه الهلع والجزع، وتنهاه كما أخبر الله عز وجل عن الفحشاء والمنكر، لا سيما إذا أداها جماعة في المسجد، فإنها تعوده النظام والطاعة، وتشعره بالتضامن الأخوي بين الجماعة المؤمنة، وبالمساواة المطلقة التي تظلهم جميعًا، لا فرق بين أمير وصعلوك، ولا بين حاكم ومحكوم.

وكذلك الزكاة: تطهر نفس المزكي من غائلة الشح ورذيلة البخل، وتقوي فيه أريحية الإحسان والبذل، فيعيش كريمًا علىٰ نفسه، نافعًا لأمته، سباقًا إلىٰ مواطن البر وأعمال المروءات.

والصوم: أحد هذه العبادات التي يحبها الله عز وجل، لما لها من أثر جليل في تزكية النفوس وتقويم الأخلاق، ونفي آثار الضعف البشري الذي ينجم عن الطبع الحيواني والغرائز البهيمية.

وإذا كانت الشخصية الإنسانية الكاملة هي التي يتوفر لها عقل سليم ذكي الفطرة تكسب به العلوم الصحيحة النافعة والعقائد الإيمانية القويمة، وتتوفر لها إرادة حرة لا يطغىٰ عليها جموح الشهوة، ولا يستبد بها الهوىٰ الأرعن، ولا تستعبده الرغبات

الدنيا؛ فإن الصوم بما فيه من حرمان وكف عن الشهوات وإمساك عن المفطرات طيلة النهار مع عرض هذه الرغائب للصائم في كل لحظة، وتمكنه من تناولها لو أراد، لا شك يوفر لنا هذه الإرادة الحرة الجياشة بالخير المنطلقة إلىٰ غاياتها العليا من كل سعي حميد وعمل صالح مفيد.

فالقرآن والسنة – بما اشتملا عليه من علوم ومعارف لا يقاس بها كل ما أنتجته عقول البشر إلا كما يقاس الرذاذ بوابل المطر – كفيلان بأن يوفرا لنا الكمال العملي والحقائق الإيمانية.

والصوم هو الكفيل بتكميل الجانب العملي الذي يقوم علىٰ إرادة قوية لا تنهزم أمام بريق اللذات وإغراء الشهوات.

ولعل هذه هي الحكمة في اختيار شهر رمضان ليكون موسمًا لهذه العبادة الحبيبة؛ لأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، ولا يخفىٰ ما بين القرآن والصيام من مناسبة وارتباط؛ فإن الأول مصلح للعقول، والثاني علاج للإرادات.

ولعل هذه هي الحكمة – أيضًا – في أن النبي ﷺ كان يكثر من مدارسة القرآن في رمضان؛ فقد روىٰ ابن عباس – رضي الله عنهما –

(أن جبـريل عليه السلام كـان يـنزل عليـه كـل ليلة في رمـضـان فـيـدارسـه القـرآن)[١].

ولا زال صالحو المسلمين علىٰ سنة نبيهم ﷺ في الاعتناء بتلاوة القرآن ومدارسته في شهر رمضان.

والصـوم كـذلك يعـودنا خلق الصـبـر الذي هو رأس الفـضـائل الإيمانية، ونحن في كل ما نأتي أو نذر من الأمور في حاجة إلىٰ الصبر؛ فهو داخل في الأعمال كلها، وسائرها متوقف عليه.

فلا تتم طاعة وقيام بالتكاليف إلا مع الصبر؛ لا يتم جهاد للنفس والهوىٰ وقمع للشهوات إلا مع الصبر.

وكذلك لا يتم احتمال للبلاء وثبات عند المصيبة إلا بالصبر.

ومتىٰ حصل لنا خلق الصبر بسبب طول التمرن والاعتياد عليه طيلة شهـر رمـضـان، فـقـد انفـتـح لنا باب عظيم من أبواب الخيـر، واستطعنا أن نظـفر بثمرة الصبر نصراً وحسن عاقبة في الدنيا، كما

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي (٦)، وانظر أطرافه: (١٩٠٢، ٣٢٢٠، ٣٥٥٤، ٤٩٩٧).

قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

وكما قال علىٰ لسان الصديق يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

وفي الحديث الصحيح: (**واعلم أن النصر مع الصبر**)[1].

وأن نظفر بها أجرًا وحسن مثوبة في الآخرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

بل وبالصبر مع اليقين يبلغ العبد منصب الإمامة في الدين؛ كما قال تعالىٰ في شأن بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

والصوم يقوي فينا ملكة المراقبة لله – عز وجل – فإن الصائم تعرض له أثناء صومه رغبات كثيرة، فكلما نزعت نفسه إلىٰ شيء منها ذكر أنه صائم لله، وأن الله مطلع عليه، فيحجز نفسه عما تتوق إليه من تلك الرغبات خوفًا من الله وحياء منه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٧). وهو جزء من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – المشهور: (**احفظ الله يحفظك...**).

ويتكرر ذلك في أيام رمضان، ويقوىٰ ذلك المعنىٰ ويشتد حتىٰ يبلغ درجة الإحسان التي يعرفها الرسول ﷺ بقوله: (**أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)[١]، ويصل إلىٰ صريح الإيمان كما قال عليه السلام: (**صريح الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت**)[٢]، ويستحي من الله عز وجل أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره.

وفي الحديث الصحيح: (**استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك**)[٣].

والصوم علاج لكثير من أدواء المجتمع؛ فهو يطهره من الجشع والتكالب علىٰ المادة، ويخلصه من الأثرة والأنانية، ويشبع فيه روح السماحة والبذل والإيثار.

<١> رواه البخاري في كتاب الإيمان (٨)، ومسلم في كتاب الإيمان ١/ ٤٥ (٢١).

<٢> لم نقف عليه.

<٣> رواه ابن عدي في الكامل (٢/ ١٣٦)، (٤/ ٩٠) من حديث أبي أمامة، وهو حديث ضعيف. وهو في ضعيف الجامع الصغير (٨٠٤).

وهو كذلك يصفي جوهر النفس ويخلصها من عبادة الجسد والسعي في مطالبه، فتفرغ لحياتها الخاصة من الإقبال علىٰ العبادة وحضور مجالس العلم ومداومة الذكر وتلاوة القرآن.

ويطول بنا القول لو أردنا أن نتقصىٰ حكم الصوم وأسراره. وقد جمعها القرآن في كلمة واحدة حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

يعني: يعدكم الصوم للتقوىٰ، ولا شك أن التقوىٰ معنىٰ جامع لكل أبواب الخير والصلاح واجتناب الشر والفساد.

ولنرجع إلىٰ الكلام علىٰ الحديث الذي صدرنا به المقال فنقول:

إن الرسول ﷺ يشبه الصيام بالجنة وهي الدرع التي يلبسها المحارب لتقيه من سهام الأعداء لأن الصوم – كذلك – وقاية للصائم يقيه من الوقوع في موجبات الإثم ودركات الرذيلة.

وهو يوصي الصائم بالمحافظة علىٰ جنته فلا يخرقها بارتكاب ما لا يليق من الأعمال التي لا تناسب هذه العبادة القدسية فلا يفحش في القول ولا يخوض فيما يتعلق بالجماع وأحوال النساء، ويقابل الجهل

بالحلم والإساءة بالصفح، فلا يسرع بالانتقام ممن آذاه أو تعرض له بسوء.

وإذا قاتله أحد أو شاتمه فليذكر أنه صائم، وليقل ذلك لنفسه فيما بينه وبينها حتىٰ يطفئ سورة غضبها ويرده عن الرغبة في الانتقام.

وليكن هذا هو جوابه الذي يرد به علىٰ كل جاهل سفيه.

ثم يقسم الرسول ﷺ بالله الذي نفسه بيده أن خلوف فم لصائم – وهو رائحة فمه المتغيرة في آخر النهار من الجوع – أزكىٰ وأطيب عند الله من ريح المسك حين يتضوع أريجه؛ وذلك لأنها حصلت بسبب عبادة يحبها الله ويرضاها، فكان عند الله بمنزلة تفوق كل رائحة طيبة.

ثم يخبر عن الله عز وجل بحسن ثنائه علىٰ الصائمين، وأنهم إنما تركوا طعامهم وشرابهم له وحده، لم يحملهم علىٰ ذلك رغبة في محمدة ولا حسن ثناء، ولم يدفعهم إليه تصنع أو رياء، لأن الصوم من بين سائر العبادات أمر باطني لا يطلع عليه إلا الله عز وجل فلا يدخله شيء من الرياء من حظ النفس.

ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي: (**الصيام لي وأنا أجزي به**)[١].

والصوم – كذلك – من بين سائر العبادات لم يعبد به غير الله.

وأما العبادات الأخرىٰ فقد يشرك فيها الناس مع الله غيره، ولهذا كان الله عز وجل – هو الذي يتولىٰ جزاء الصائمين فهو يجزي علىٰ الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف.

وأما الصيام فإنه يعطي عليه الأجر جزافًا لا كيل ولا تقدير كما قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾.

والصوم هو من الصبر، بل هو نصف الصبر؛ كما ورد ذلك في حديث مرفوع[٢].

ثم يخبر ﷺ أن للصائم فرحتين: فرحة إذا أفطر عقب شهر الصيام حيث يكون ذلك اليوم عيداً يبتهج فيه المسلمون بما أنعم الله عليهم

<١> جزء من حديث الباب.

<٢> رواه ابن ماجه في كتاب الصيام (١٧٤٥). وهو في ضعيف سنن ابن ماجه (٣٨٢).

من إكمال عدة الشهر، ويكبرون الله ويشكرونه علىٰ ماهداهم ووفقهم إليه من أداء هذه الفريضة علىٰ الوجه الذي يحبه ويرضاه.

وأما الفرحة الثانية فإذا لقي الله عز وجل وعاين ما أعد له من أنواع الكرامة وعظيم الأجر، هنالك يفرح بصومه أشد الفرح حين يعلم أن ذلك الجزاء إنما أعد له بسببه.

وقد ورد في الصحيح: **(إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم. ويقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلا يدخل منه أحد)**[1].

نسأل الله – عز وجل – أن يوفقنا وإخواننا جميعًا إلىٰ حسن صيام هذا الشهر وقيامه، وأن نخرج منه وقد غفر لنا بمنه وكرمه.

<1> متفق عليه، رواه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم في كتاب الصيام.

٥ من حج فلم يرفث ولم يفسق (★)

قال رسول الله ﷺ: **(من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)**[١].

شرح الحديث

يخرج المسلمون من صيام رمضان وقد تزودوا بطاقة هائلة من الحياة الروحية الخالصة فسمت نفوسهم عن التعلق بالماديات، وتمرنت إرادتهم علىٰ مغالبة الشهوات وتحمل المشاق والمكروهات؛ فيدخلون في أشهر الحج وهم معبأون تعبئة كاملة روحيًا وبدنيًا، مهيأون للقيام بأعباء تلك الفريضة المقدسة التي هي الركن الخامس من أركان الإسلام؛ وهي فريضة الحج.

والحج كالصيام فريضة قديمة فرضها الله علىٰ عباده منذ أمر خليله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت الحرام بمكة، ثم أمره أن يؤذن في الناس

(★) الهدي النبوي – المجلد: ٣٠ – العدد: ١٠ شوال ١٣٨٥هـ.

<١> رواه البخاري في كتاب الحج (١٥٢١)، ومسلم في كتاب الحج (٤٣٨).

بالحج يأتوه رجالاً وعلىٰ كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات علىٰ ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

وأراه الله مناسك الحج وشعائره هو وولده إسماعيل عليهما السلام فبقيت بعدهما في ذريتهما من العرب، فكانوا يحجون البيت ويطوفون به ويقفون بعرفة والمزدلفة، ويسعون بين الصفا والمروة.

إلا أنهم أحدثوا في ذلك من البدع بتقادم العهد وتسلط الأهواء وتزيين الشيطان ما انحرف بهم عن الجادة.

فأحدثوا عبادة الأصنام، ونصبوها حول الكعبة وداخلها، فكانوا يهلون لها، ويذبحون علىٰ النصب تقربًا إليها؛ وكانوا يقولون في تلبيتهم: ‹ لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك›.

وكانوا يطوفون بالبيت عراة، ويتحرجون من الطواف بثيابهم التي جاءوا بها، وحتىٰ النساء كن يطفن عرايا بالبيت، فكانت المرأة تصنع علىٰ فرجها خرقة ثم تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فلما بعث الله نبيه محمداً ﷺ مجدداً لملة أبيه إبراهيم عليه السلام كان من الطبيعي أن يشمل ذلك التجديد فريضة الحج؛ ففرض في السنة السادسة من الهجرة .

ودليل الفرضية من الكتاب قوله تعالىٰ من سورة البقرة: ﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٩٦]، إلىٰ قوله: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقوله من سورة آل عمران: ﴿ **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾** ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن السُّنة قوله ﷺ: (**إن الله كتب عليكم الحج فحجوا**)[١].

وقوله فيما رواه ابن عمر: (**بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا**)[٢].

<١> رواه مسلم في كتاب الحج (٤١٢) بنحوه.

<٢> رواه البخاري في كتاب الإيمان (٨)، (٤٥١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان (١٩ – ٢٢).

وقد فسر النبي ﷺ السبيل بالزاد والراحلة؛ فمن ملك نفقة نفسه وأهله حتىٰ يرجع، ووجد الراحلة التي تبلغه إلىٰ مكة – يعني أجرة سفره ذهابًا وإيابًا – وجب عليه أن يبادر إلىٰ الحج فإنه لا يدري ماذا يعرض له بعد ذلك؛ فقد يمرض أو يقل ماله؛ وقد جاء في الأثر: **(حجوا قبل أن لا تحجوا)**[1].

والحج من العبادات التي لها أثر بالغ في تربية النفوس؛ فهو تجرد من زينة الدنيا ورجوع إلىٰ بساطة الفطرة، وركوب للصعاب والمشاق، وتعظيم لحرمات الله بالكف عن كل ما فيه أذىٰ وعدوان، ولهذا لا يقتل المُحرم صيدًا، ولا يقص ظفرًا، ولا ينتف شعرًا، بل شأنه كله سلام مع نفسه ومع غيره.

وفي الحج – كذلك – استجابة لدعوة الله التي دعا بها عباده إلىٰ

<1> رواه الحاكم (١/٤٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٣١)، والبيهقي (٤/٣٤٠) عن علي رضي الله عنه. وهو حديث موضوع. وهو في ضعيف الجامع (٢٦٩٥).

ورواه الدارقطني (٢/٣٠٢)، والبيهقي (٤/٣٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو موضوع أيضًا. وهو في ضعيف الجامع (٢٦٩٧).

زيارة بيته الحرام علىٰ لسان خليله إبراهيم عليه السلام ولهذا يقول الحاج في إهلاله بالحج أو بالعمرة: (**لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**).

ومعنىٰ لبيك: إسراعًا في طاعتك، وإجابة لدعوتك بلا تمهل ولا إبطاء.

والحج – بعد ذلك – هو مؤتمر المسلمين العام الذي يتكرر في كل سنة حيث يفدون من شتىٰ أقطار الأرض فيذكرون تلك الوحدة الدينية التي تظلهم جميعًا علىٰ اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباين ألسنتهم ولهجاتهم، فيتعارف الإخوة، ويتبادلون المنافع بينهم، ويتفاهمون علىٰ حال ما فيه إصلاح أحوالهم وإعزازهم، وتقوىٰ أواصر الإخاء بينهم، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك حيث قال: ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ﴾ [الحج: ٢٨].

وفي الحديث – الذي معنا – يخبر النبي ﷺ أن من أدىٰ فريضة الحج علىٰ الوجه الصحيح؛ يعني: أخلص فيه النية لله عز وجل، فلم يخرج رياء ولا سمعة، بل إيمانًا بالله، واحتسابًا للأجر عنده، وامتثالاً للأمر، وأداء للفريضة حيث اجتنب ما لا يليق أن يتلبس به المحرم من

الرفث، وهو الجماع ومقدماته وكل ما يتعلق به، والفسوق: وهو الخروج عن طاعة الله أىٰ معصيته؛ فإنه يرجع من حجه نقيًا من الذنوب كيوم ولدته أمه، إلا ما يتعلق منها بحقوق العباد، فإن هذه لا تسقط بالحج ولا بغيره من المكفرات، بل لابد فيها من ردها إلىٰ أهلها، أو يطلب إليهم أن يحلوه منها.

ولا عجب أن يكون الحج بهذه المثابة في التطهير من الذنوب؛ فإنه رحلة إلىٰ الله عز وجل يتحمل فيها المسلم كثيراً من المشقات، ويركب متن الأهوال والأخطار، ويضحي بالكثير من قوته وماله، ويذهب فيؤدي نسكه، ويقضي تفثه ويحط رحاله بباب سيده، وقد جاءه من شقة بعيدة طالبًا منه العفو والمغفرة جائراً إليه بالشكوىٰ من أوزاره التي إن بقيت عليه ولم يغفرها الله له كانت سبب هلاكه وبواره.

فما ظنك بسيد كريم لاذ به عبده وأسال بين يديه العبرات؛ وأقر عنده بظلمه وجهله، وبما فرط فيه من حقه، وبما أسرف فيه علىٰ نفسه، ثم جاءه تائبًا نادمًا عالمًا أنه لا ملجأ له من الله إلا إليه، وأنه لن يجيره من الله أحد، وأنه إن لم يتداركه الله برحمته وفضله فقد شقي الشقاء كله.

إن الله سبحانه أكرم من أن يرد عبده خائبًا بعد ما علم منه الصدق في اللجأ إليه والإخلاص في التوبة من ذنبه، وقد جاء في الحديث الصحيح: (**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**)[١].

نسأل الله أن يمن علينا وعلىٰ إخواننا بحسن أداء تلك الفريضة وأن يقبلها منا بمنه وكرمه.

<١> رواه مسلم في صحيحه في كتاب الحج (٤٣٧).

٦ استوصوا بالنساء خيرًا (*)

عن عمرو بن الأحوص الجشمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه وذكر ووعظ ثم قال: (**ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة؛ فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا إن لكم علىٰ نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا؛ فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**)[1].

شرح المفردات

(**حجة الوداع**): هي التي حجها النبي ﷺ بالمسلمين في السنة العاشرة من الهجرة وبين لهم فيها مناسك حجهم وعهد إليهم فيها بما

(*) الهدي النبوي – العدد: ١١ – المجلد: ٣٠ – ذو القعدة ١٣٨٥هـ.

[1] رواه ابن ماجه في كتاب النكاح (١٨٥١)، والترمذي في الرضاع (١٠٨٣).

أراد أن يحافظوا عليه من أحكام دينهم وحقوق بعضهم علىٰ بعض.

وسميت حجة الوداع لأن النبي ﷺ كان يودع فيها أمته ويقول لهم: (**اسمعوا مني أبين لكم، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا الموقف أبدًا**)[١].

(**استوصوا بالنساء خيرًا**): أي ليوص بعضكم بعضا بامرأته خيرًا، فيأمره بحسن عشرتها، والقيام بحقها، والكف عن إيذائها، فإن ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(**هن عوان عندكم**): عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة، يعني: أنه يشبههن ﷺ بالأسيرات في دخولهن تحت حكم الزوج، ولزومهن بيت الزوجية، وهذا مما يوجب الشفقة عليهن، ويحرك داعية الإحسان والعطف، وحسن الرعاية لمن جعلهن الله أسيرات عندنا.

(**ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك**): يعني: لا يملك الرجل من امرأته إلا ما جعله حقًا له عليها من وجوب طاعته ولزوم بيته بحيث لا تخرج إلا بإذنه، ومن عدم النشوز والترفع عليه، ومن حفظه في

---

[١] رواه مسلم بمعناه في كتاب الحج (١٢٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

نفسها وفي ماله؛ كما قال الله عز وجل: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ [النساء: ٣٤].

(**إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**): الظاهر أن هذا استثناء من قوله: (**ليس تملكون منهن شيئًا**).

والمعنىٰ: لا حق لكم في أكثر مما أوجبه الله علىٰ النساء من هذه الأمور المتقدمة إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فيحق لكم حينئذ هجرهن.

ويجوز أن يكون الاستثناء من قوله: (**استوصوا بالنساء خيراً**).

والمعنىٰ: أحسنوا إليهن ما دمن مطيعات لكم، فإذا نشزن عليكم شرع لكم تأديبهن بالهجر أولاً ثم الضرب إذا لزم.

و(**الفاحشة**): هي الفعلة المتناهية في القبح، وتطلق غالبًا علىٰ الزنا لشناعته. والمراد بها هنا النشوز والعصيان.

ووصفها بكونها (**مبينة**) بمعنىٰ واضحة، للإشارة إلىٰ أن ما يقع من المرأة – أحيانًا – من خلاف في شؤون الأسرة أو مغاضبة للزوج بسبب تقصير أو إساءة وقعت منه في حقها لا يعد من النشوز الذي سماه الحديث (**فاحشة مبينة**)؛ فإن المعتبر في النشوز تعمد العصيان

والاستطالة علىٰ الرجل بما يشعر باحتقارها له بصفة دائمة.

(**فـإن فـعلن فـاهجـروهن في المضـاجع**) : يعني : إذا وقع من المرأة النشوز، وظهر ظهوراً بيناً في معاملتها للزوج وفي لهجة خطابها معه، فعلىٰ الزوج أن يعظها – أولاً – ويذكرها بحقه عليها ويخوفها عاقبة نشوزها.

فإذا لم يجد معها النصح ولم تنفع الموعظة انتقل إلىٰ الخطوة الثانية وهي هجرها في المضجع.

واختلف في حد هذا الهجر: فقيل: لا يدخل معها في لحاف واحد، وقيل: لا ينام معها في غرفة واحدة وقيل: يكفي فيه أن يوليها ظهره.

(**واضروبهن ضربًا غير مبرح**) : هذه هي المرحلة الثالثة والأخيرة وهي أن يضربها ضرباً لا يبلغ به حد الإيلام، ولكن يقصد به إشعارها بأنها ارتكبت ما تستحق عليه الإهانة والتأديب.

(**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**) : يعني : إذا عادت الناشز إلىٰ طاعة زوجها أو لم يقع منها نشوز بل كانت من أول الأمر مطيعة له،

فلا يجوز لرجل أن يبتغي السبيل إلىٰ إيذائها بتلمس الهفوات وتتبع العثرات، بل يجب أن يغض الطرف عن ذلك استدامة للحياة الزوجية وإلا فلن يجد امرأة تستقيم له علىٰ طريقة أبدًا، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج كما جاء به الحديث[١]، فليستمتع بها علىٰ عوجها.

(**ألا إن لكم علىٰ نسائكم حقًا**): أتىٰ بألا الاستفتاحية - هنا أيضًا - لتأكيد ما تضمنته الجملة التي بعدها من الحقوق.

والحق: مصدر حق الشيء يحق؛ إذا ثبت ووجب. ولهذا يوصف به كل شيء ثابت، فالله - عز وجل - حق، ولقاؤه حق، وقوله حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق؛ كما جاء به الحديث.

وكل حق يقابله واجب؛ فإن كل حق لك هو واجب علىٰ غيرك ولهذا قال: (**إن لكم علىٰ نسائكم حقًا ولنسائكم عليكم حقًا**)، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٢٨].

يعني لهن من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه (٥١٨٦)، ومسلم في كتاب الرضاع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (**استوصوا بالنساء خيراً**...).

(**فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون**) : هذا بيان لحق الرجل علىٰ المرأة، و هو أن لا تسمح لرجل ممن يكرهه زوجها بأن ينام علىٰ فراشه، وأن لا تأذن له – كذلك – بدخول بيته، فإن في ذلك مغيظة للرجل وإثارة للريب والشكوك في قلبه.

والبيت هو محل سكن الرجل وموضع راحته، فلا يجوز أن تنغص عليه المرأة مقامه فيه بأن تجعله مراداً لأعدائه وشانئيه.

وقيل معنىٰ الجملة: أن لا تستخلي المرأة بالرجال، وقد كان ذلكم من عادة العرب في الجاهلية أن يتحدث الرجال مع النساء، ولم يكن ذلك عيبًا ولا ريبة.

فلما نزلت آية الحجاب نهوا عن ذلك.

(**ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في طعامهن وكسوتهن**) : يعني: بحسب اللائق بحال الرجل يساراً وإعساراً؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**﴾ [الطلاق: ٧].

وفي هذا دليل علىٰ وجوب نفقة الزوجة وكسوتها عند عدم النشوز، وهو إجماع.

شرح الحديث

لقد كانت حجة الوداع أعظم مجمع شهدته بطاح مكة منذ أن أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت العتيق، وأن يؤذن في الناس بالحج.

فقد شهد هذه الحجة مع رسول الله ﷺ عامة من دخل في الإسلام من أهل الجزيرة حتىٰ قيل إن عددهم كان نحواً من مائة وعشرين ألفًا، ولهذا قال الرسول ﷺ في بعض خطبه: (**إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه رضي بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه علي دينكم**)[1].

ونزل عليه وهو قائم بعرفة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

ولقد انتهز الرسول ﷺ فرصة هذا الجمع العظيم فبثهم وصاياه ونصائحه ليحملوها إلىٰ من وراءهم، وقرر كافة الحقوق، وعظم حرمة

---

(١) مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٢)، وأحمد (٣/٣١٣)، والترمذي (١٩٣٧).

الدماء والأموال والأعراض، ونهاهم أن يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض.

وكان كلما عهد إليهم بشيء قال: (**ألا هل بلغت**)، فيقولون: نعم.

فيرفع إصبعه إلىٰ السماء ثم ينكتها إليهم ويقول: (**اللَّهم اشهد**)[1].

ولما كانت شؤون الأسرة وحقوق كل من الزوجين علىٰ الآخر من الأمور التي حفلت بها الشريعة، وأكدها الكتاب الكريم؛ لأن في حفظ كيان الأسرة وسلامتها حفظ كيان الأمة كلها وسلامتها، فقد أكد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه هذه الحقوق، وأوجب رعايتها علىٰ كل من الرجل والمرأة حتىٰ تستقيم شؤون الأسرة، وتظللها أجنحة السعادة، وتأمن تلك الهزات العنيفة التي تهددها بالانحلال والشقاء نتيجة الإخلال والعبث بتلك الحقوق المقدسة.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الحج (١٢١٨) ضمن حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حجة النبي ﷺ.

فهو ﷺ يوصي الرجال بالنساء خيراً، ويعلل هذا بأن المرأة أسيرة في بيت الرجل، فقد رضيت أن تعيش في كنفه تحت حكمه؛ فهي رعية من رعاياه يجب عليه أن يحسن رعايتها وأن يتلطف معها وأن لا يخشن في معاملتها.

وفي الحديث الصحيح: (**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**)<1>.

والمرأة مهما أوتيت من أسلحة، ومهما زين لها أبالسة الفتنة أنها مساوية للرجل من كل وجه، فهي تشعر في قرارة نفسها بأنها لا تقوىٰ علىٰ منازلته، بل تشعر بأن كمالها في أن يحكمها الرجل ويحوطها بحمايته، ولا يزال أضعف ما في المرأة هو أقوىٰ ما فيها. وفي الحديث: (**إني أحرج في حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**)<2>.

<1> رواه الترمذي في سننه (٣٨٩٥)، وهو في صحيح الجامع (٣٣١٤).

<2> رواه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وأحمد (٢/٤٣٩)، والحاكم (١/٦٣)، وابن حبان (٥٥٦٥ موارد)، والبيهقي (١٠/١٣٤). وهو في صحيح الجامع (٢٤٤٧).

ولقد رغب القرآن الرجل في إمساك المرأة حتىٰ ولو كرهها؛ فقال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾**﴾ [النساء: ١٩].

وجاء رجل إلىٰ عمر بن الخطاب يريد أن يطلق امرأته لأنه لا يحبها، فقال له عمر: (أو لم تبن البيوت إلا علىٰ الحب! فأين الرعاية والتذمم).

ولما كان الرجل في طبعه حب التسلط والاستعلاء؛ فقد أمره الإسلام أن يلزم حده، وأن لا يكلف المرأة من الحقوق إلا ما جعله الله له من وجوب طاعة الزوجة وانقيادها لأمره في المعروف.

فإذا حاولت المرأة أن تتنكر لهذه الحقوق وأن تتمرد علىٰ زوجها فله حينئذ حق تأديبها حتىٰ ترجع إلىٰ طاعته وتقلع عن نشوزها وتفيء إلىٰ أمر الله.

فإذا رجعت فلا ينبغي له أن يتلمس السبيل إلىٰ إيذائها، بل يجب أن يقبل منها توبتها، ويجعل ما حصل منها كأن لم يكن حتىٰ تصفو لهما الحياة وتعود المياه إلىٰ مجاريها ويجنيان ثمار حياتهما الجديدة.

ثم بين النبي ﷺ حق الرجل علىٰ زوجته في أن تبتعد عن كل ما يؤذيه ويثير غيرته، من اختلائها بالرجال الأجانب، ومن إذنها لمن يكرههم الزوج بدخول منزله والجلوس علىٰ فراشه.

وهناك حقوق أخرىٰ للرجل لم تذكر في الحديث، وجماع ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ [النساء: ٣٤].

وفي الحديث الصحيح: (**ما أوتي أحد بعد تقوىٰ الله خيراً من زوجة صالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وفي ماله**)[1].

فإن وفت المرأة بهذه الحقوق والتزمت ما حده الله لها كان حقًا علىٰ الرجل أن يقوم بما يجب لها نحوه من كسوتها وإطعامها بالمعروف مع جميل رعاية وحسن معاشرة.

وقد جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ فقال له: (**أن تطعمها إذا طعمت، وأن تكسوها إذا**

---

[1] مسلم في كتاب الرضاع ٢ / ١٠٩٠ (٥٩) بنحوه، وأبو داود في كتاب الزكاة (١٦٤٨ عون المعبود)، وأحمد (٢ / ١٦٨).

اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت)[1].

فحبذا لو رعت الأُسر المسلمة هذه المعاني الكريمة وجعلتها دستوراً لها في حياتها.

إذاً لدامت سعادتها وهناؤها، ولم نسمع كل يوم عن هذه الأسر التي تنهار وتتشرد نتيجة للعبث بهذه الحقوق والواجبات، وبالله التوفيق.

❁ ❁ ❁

---

(١) أبو داود في كتاب النكاح (٢١٤٢)، وابن ماجه في كتاب النكاح (١٨٥٠)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٤٦)، (٥/ ٣).

٧ المسألة سحت(*)

عن أبي بشر قبيصة بن المخارق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأل فيها. فقال: (**أقم حتىٰ تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**)، ثم قال: (**يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتىٰ يصيبها ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتىٰ يصيب قواماً من عيش** أو قال: **سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحجىٰ من قومه: لقد أصابت فلان فاقة فحلت له المسألة حتىٰ يصيب قواماً من عيش** أو قال: **سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتاً**)<1>.

شرح المفردات

(**أبو بشر قبيصة بن المخارق**): ابن عبد الله بن شداد بن ربيعة العامري من بني هلال بن عامر، كنيته أبو بشر، واسمه قبيصة (بضم

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣٠ – العدد: ١٢ – ذو الحجة ١٣٨٥هـ.

<1> رواه مسلم في كتاب الزكاة (١٠٩).

القاف وفتح الباء). وفد علىٰ رسول الله ﷺ فأسلم، وكان ممن سكن البصرة من الصحابة، وروي له نحو من ستة أحاديث، منها الحديث العظيم الذي نحن بصدده.

(**تحملت حمالة**): الحمالة (بفتح الحاء المهملة وتخفيف الميم): هي أن يقع قتال ونحوه بين فريقين، فيصلح إنسان بينهم علىٰ مال فيتحمله ويلتزمه علىٰ نفسه دفعًا لتلك المفسدة وإصلاحًا لذات البين.

(**أسأله فيها**): في هنا يحتمل أن تكون للظرفية المجازية.

المعنىٰ: أسأله المعونة في أدائها، ويحتمل أن تكون للسببية كما في حديث: (**عذبت امرأة في هرة**)[1].

والمعنىٰ: أسأله بسبب تلك الحمالة.

---

(١) صحيح الإسناد: رواه أحمد ٢/ ٥١٩ (١٠٧٣٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٠): رجاله رجال الصحيح.
ورواه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٨٢)، ومسلم في كتاب التوبة (تحت رقم ٢٥) بلفظ: (**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض**).

(**فقال أقم حتىٰ تأتينا الصدقة**) : الصدقة : اسم لما يتصدق به علىٰ الفقراء. المراد بها هنا الزكاة المفروضة، فأل فيها للعهد كما في قوله تعالىٰ : ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**﴾ [التوبة : ٦٠].

ويظهر أن الرسول ﷺ لم يكن عنده حين سؤال قبيصة ما يكفي لحمالته، فأمره أن يقيم معه بالمدينة حتىٰ يرجع عمال الصدقات.

(**فنأمر لك بها**) : أي نأمر لك بما يفي لحمالتك من أموال الصدقة.

(**ثم قال : يا قبيصة**) : كان من عادته ﷺ أن ينتهز مثل هذه المناسبات للبيان والإرشاد. ولما كان الأمر يتعلق بالمسألة فقد شدد النبي ﷺ في أمرها، وبين أنها لا تنبغي ولا تحل إلا عن حاجة قاهرة وفي أمر خطير.

فقال : (**إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة**) قيل : المراد بالمسألة هنا السؤال مطلقًا سواء كان مال الصدقة أو غيره، وسواء كان المسؤول هو الإمام العام أو غيره.

والمعنىٰ : إن المسألة مطلقًا لا تحل إلا في واحدة من هذه الحالات الثلاث، وهو الظاهر، وقيل المراد بها السؤال من الصدقة المعهودة وهي الزكاة.

(**رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتىٰ يصيبها**) : هذا أول الثلاثة الذين تحل لهم المسألة، وإنما بدأ به لأنه الوصف الثابت لقبيصة الذي وجهت له الموعظة.

وقوله: (**حتىٰ يصيبها**) غاية للحل. أي: حتىٰ يقضي دينه الذي تحمله من أجلها ثم يمسك بعد قضائها عن المسألة.

(**ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله**) : الجائحة: هي الشدة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة، يقال: جاحتهم الجائحة، واجتاحتهم. ويقال: جاح الله ماله، وأجاحه بمعنىٰ أهلكه.

قال ابن الأثير في النهاية: الجائحة: هي الآفة التي تهلك الثمار والأموال وتستأصلها، وكل مصيبة عظيمة وفتنة منفردة جائحة.

ومنهم من يخص الجائحة بالآفة السماوية، وإن كان المراد بها في الحديث ما يشمل الأرض – أيضًا – لأن المراد فقره وحاجته. ولعل فيه لأهل اللغة قولين: الإطلاق والتقييد.

ومعنىٰ اجتاحت ماله: أهلكته، واستأصلته، وأتت علىٰ كل ماله من ثمر وزرع وغيرهما.

(**فحلت له المسألة حتىٰ يصيب قوامًا من عيش**): القوام (بفتح القاف وكسرها). ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه. وقد يُقال له قيام – أيضًا – كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ [النساء: ٥].

ومنهم من يقتصر علىٰ الكسر فيقول القوام بالكسر؛ ما يقيم الإنسان من القوت. وأما القوام (بالفتح) فهو العدل والاعتدال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

المراد أن المسألة تحل له حتىٰ يصيب من العيش ما يقوم بحوائجه الضرورية ثم يمسك، فهو في حكم المضطر الذي لا يجوز له أن يتعدىٰ قدر الضرورة.

(أو قال: **سدادًا من عيش**): (**أو**) هنا شك من الراوي في أي اللفظين نطق به ﷺ.

والسداد (بكسر السين) ما يسد حاجة المعوز ويكفيه من مال ونحوه، وكل شيء سددت به شيئًا فهو سداد بالكسر، ومنه سداد الثغر، وسداد القارورة، وسداد العوز. قال الشاعر:

أضاعوني وأي فتىٰ أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وأما السداد (بفتح السين) فهو الصواب، ومنه: قول سديد، ورأي سديد.

(**ورجل أصابته فاقة**): أي فقر وحاجة. يقال: افتاق الرجل احتاج أي حاجة. وهو ذو فاقة أي حاجة.

وهذا الصنف غير الذي قبله، وهو الذي اجتاحته الجائحة؛ لأن المراد به أصابته فاقة ظاهرة؛ سواء كان ذلك بجائحة أو غيرها، ولهذا قال:

(**حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحجىٰ من قومه لقد أصابت فلانًا فاقة**): الحجىٰ (بكسر الحاء) العقل الكامل.

المراد أن الفاقة ظهرت عليه فلم تخف علىٰ قومه إلى أن يقول ثلاثة منهم ذلك، المراد أن يشهدوا له بذلك عند الإمام ليعطيه من أموال الزكاة ما يقيم أوده.

وإنما اشترط أن يكون ثلاثة لأن هذا أقل الكثرة، ثم اشترط مع ذلك اتصافهم بالعقل الكامل، وكونهم من قومه العارفين بحاله الظاهرة والباطنة والمطلعين منها ما لا يطلع عليه غيرهم.

والمقصد من هذا التشديد: المبالغة في الكف عن المسألة حتىٰ يظهر صدقه ظهوراً بيناً.

(**فحلت له المسألة حتىٰ يصيب قواماً من عيشه**) يعني: أنه لا يكثر من المسألة بعد أن حلت له بل يقتصر علىٰ ما يقتصر عليه المضطر من سد الرمق.

(**فما سواهن يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتاً**): الفاء – هنا – للتفريع لأنه بعد أن بين ما يحل من المسألة أراد أن يبين حكم ما وراء ذلك، فقال: فما سوىٰ هذه الأقسام الثلاثة من المسألة سواء كان من مال الزكاة أو صدقة التطوع هي سحت: أي حرام لا يحل أكله.

وسمىٰ الحرام سحتاً لأنه يسحت البركة، أي يذهبها ويستأصلها وأصل السحت: الهلاك.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ**﴾ [طه: ٦١].

المعنى الإجمالي للحديث

تعتبر المسألة من أشد الأدواء الاجتماعية خطراً وأقبحها أثراً، ما ابتليت بها أمة إلا حطمت من كيانها وجعلتها أضحوكة بين

الأمم، حيث يتعود أبناؤها العيش من هذا الطريق السهل فتنحط هممهم ويقعد بهم العجز والخور عن القيام بجليل الأعمال وكبار الأمور.

ولهذا شدد الرسول ﷺ النكير علىٰ هذه الطائفة التي جعلت رزقها أن تتسول وتستجدي الأكف، وبالغ في ذمها وتحقيرها فقال: **(لا تزال المسألة بأحدكم حتىٰ يلقىٰ الله وليس في وجهه مزعة لحم)**[1].

وفي الحديث الآخر: **(إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه)**[2].

وفي هذا الحديث العظيم الذي رواه قبيصة يبين الرسول ﷺ الحالات التي تحل فيها المسألة، وهي عند التأمل لا تبيح المسألة إلا في حالة الضرورة القصوىٰ ولا تبيحها إلا بقدر الضرورة أيضاً.

وتعتبر كل ما وراء هذه الأحوال الثلاث سحتاً لا يحل أكله.

<1> رواه البخاري في كتاب الزكاة (١٤٧٤)، ومسلم في كتاب الزكاة (١٠٣).

<2> رواه أبو داود في كتاب الزكاة (١٦٣٩)، والترمذي في كتاب الزكاة (٦٨١)، والنسائي (٥/ ١٠٠).

وفي الحديث الصحيح: (**من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر**)[١].

ويرغب الرسول ﷺ في العمل وترك المسألة حفظًا لماء الوجه وبعداً عن مذلة السؤال فيقول: (**لأن يأخذكم أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب علىٰ ظهره فيبيعها خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**)[٢].

فحبذا لو أخذ المسلمون بهذه الإرشادات الحكيمة والمبادئ السامية التي تنهج بهم مناهج العزة والكرامة، وتنأىٰ بهم عن مواطن الذلة والصغار فينتبهوا إلىٰ محاربة هذه الظاهرة القبيحة التي اتخذ منها أصحابها فنًا مرعبًا وحرفة متبعة، في الوقت الذي اختفت فيه – أو كادت – من الدول الغربية المسيحية.

وهناك نوع آخر من التسول أشد خطراً من سابقه تقوم به جماعة من المتبطلين الكسالىٰ يسمون أنفسهم مشايخ الطرق، حيث يعطون الناس عهوداً لقاء أجور معلومة، ويفرضون علىٰ أتباعهم إتاوة يؤدونها

<١> رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة (١٠٤١).

<٢> رواه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة (١٤٧٠).

إليهم في كل عام، ومن لم يؤدها حرم من رضىٰ الشيخ وبركته وحقت عليه اللعنة.

وهذه الأمور كلها أمور يبرأ منها الإسلام ولا تتفق وكرامة الأمة التي تريد أن تبني لها مجداً، وأن تتبوأ مكانها اللائق بين الأمم، والله الموفق.

❁ ❁ ❁

٨ التحذير من الفتن (*)

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنا عند عمر رضي الله عنه؛ فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ فقال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا. قال: أنت؟ لله أبوك.

قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**تعرض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين؛ علىٰ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**).

(*) الهدي النبوي – المجلد (٣١) – العدد (١) – محرم ١٣٨٦هـ.

قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يكسر قال عمر: أكسرًا لا أبا لك، فلو أنه فتح لعله كان يعاد، قلت: لا بل يكسر؛ وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثًا ليس بالأغاليط[١].

شرح المفردات

(**حذيفة بن اليمان**): صحابي جليل كان أعلم أصحاب رسول الله ﷺ بالمنافقين حتىٰ أنهم كانوا يعرفون نفاق الرجل إذا لم يصل عليه حذيفة؛ وكان عمر الفاروق رضي الله عنه علىٰ جلالة قدره وسابقته في الإسلام، يسأل حذيفة هل تجد فيَّ خصلة نفاق؟ فيقول له: لا، ولا أزكي أحداً بعدك.

توفي رضي الله عنه عام ست وثلاثين من الهجرة في السنة التي وقعت فيها موقعة الجمل المشهورة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري دون مقطع: (تعرض الفتن علىٰ القلوب... الخ) في كتاب مواقيت الصلاة/ باب (٤) الصلاة كفارة [٢/ ١١ (٥٢٥) فتح] وفي مواضع أخرىٰ، ورواه مسلم في الإيمان/ باب (٦٥) بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً... ١/ ١٢٨ (٢٣١).

(**يذكر الفتن**) : أصل الفتنة في كلام العرب : الابتلاء والامتحان، وهو مأخوذ من فتنة الذهب ونحوه علىٰ النار لتخليصه وتنقيته مما يخالطه من أتربة وأوضار، ثم صارت في العرف لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء.

يقال : فتن الرجل يفتن فتونًا، إذا وقع في الفتنة، وتحول من حال حسنة إلىٰ حال سيئة.

(**فتنة الرجل في أهله وجاره**) : قيل : إن معنىٰ ذلك هو أن يُفْرط في محبتهم والاشتغال بهم حتىٰ شغلوه عن كثير من أبواب الخير، كما قال تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [المنافقون : ٩].

وكما قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾** ﴾ [التغابن : ١٥].

وقيل المراد بذلك : التفريط في بعض ما يلزمه القيام به من حقوقهم باعتباره راعيًا لهم.

(**التي تموج موج البحر**) : أي التي تضطرب ويدفع بعضها بعضًا، شبهها بموج البحر في شدتها وكثرة شيوعها واختلاطها وتدافعها.

(**فأسكت القوم**): قال أهل اللغة: سكت وأسكت لغتان بمعنىٰ صمت، وفرق الأصمعي بينهما فقال: سكت بمعنىٰ صمت، وأسكت بمعنىٰ أطرق.

وإنما أسكتوا لأنهم كانوا لا يحفظون ما قاله الرسول ﷺ في ذلك النوع من الفتنة.

(**لله أبوك**): كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها؛ لأن الإضافة إلىٰ العظيم تشريف، فإذا فعل الرجل ما يحمد عليه قيل له: لله أبوك؛ يعني: حيث أتىٰ بمثلك.

(**تعرض الفتن علىٰ القلوب**): المراد بالعرض هنا التعرض والظهور كأن الفتنة تعرض نفسها علىٰ القلوب أن تظهر لها فتنة بعد أخرىٰ.

(**كالحصير عوداً عوداً**): الحصير معروف، والعود (بضم العين والدال المهملة) هو واحد الأعواد، شبه عرض الفتن علىٰ القلوب واحدة بعد أخرىٰ بعرض قضبان الحصير علىٰ صانعها؛ لأنه كلما صنع عوداً أخذ آخر ونسجه، ووجه الشبه الكثرة والتلاحق وسهولة التناول.

(**فأي قلب أشربها**) : معناه دخلت فيه دخولاً تامًا وتمكنت منه كأنها حلت منه محل الشراب، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** ﴾ [البقرة : ٩٣]، يعني : تمكن حبه من نفوسهم .

(**نكت فيه نكتة سوداء**) : أي نقط فيه نقطة؛ قال ابن دريد وغيره : كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت .

(**وأي قلب أنكرها**) : يعني ردها ولم يقبلها ولم يتلبس بها .

(**أبيض مثل الصفا**) : الصفا هو الحجر الأملس كالصفوان؛ والمراد أن هذه القلوب لم تعلق بها الفتنة ولم تؤثر فيها، كأنه حجر أملس لا يعلق به شيء، وهو كناية عن استمساكها بعقد الإيمان، وسلامتها من الضعف واللين، فلم تستطع الفتن أن تغيرها أو تؤثر فيها .

(**أسود مربادا**) : الاربداد شيء من بياض يسير يخالط السواد، يقال : أربد فهو مربد كمحمر ومصفر .

والمراد : أن هذا القلب تعلوه النكت بسبب تشربه الفتنة وقبوله إياها حتىٰ يسود كله، ولا يبقىٰ فيه إلا خيوط ضئيلة من بياض .

(**كالكوز مجخيًا**) : يعني : أنه نكس وقلب حتىٰ لا يستقر به خير ولا حكمة، كما لا يستقر الماء بالكوز المقلوب.

قال القاضي عياض : شبه القلب الذي لا يعي خيرًا بالكوز المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه.

المعنى الإجمالي للحديث

اقتضت حكمة – الله سبحانه وتعالىٰ – أن لا يدع الناس – هكذا – يختلط شرارهم بخيارهم، ولا يعرف مؤمن من منافق، ولا يتميز صادق عن كاذب بل هو – سبحانه – يبتليهم بأنواع من الابتلاء التي تظهر مطاوي القلوب وخفايا النفوس، كما قال تعالىٰ من سورة آل عمران : ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ [آل عمران : ١٧٩].

وكما قال من سورة العنكبوت : ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣** ﴾ [العنكبوت : ١ – ٣].

وحينما تهب ريح الفتنة علىٰ القلوب تهزها هزًا عنيفًا فتتساقط

القلوب الهشة الضعيفة كما يتساقط الحشف اليابس، وتماع في الفتنة كما يذوب الملح في الماء، وتركض فيها ركض الجواد في حلبة السباق.

وأما القلوب المؤمنة التي ذاقت حلاوة الإيمان وخالطتها بشاشته؛ فتثبت وتتماسك وتتشبث بعرىٰ الحق في قوة، وتعتصم بما عرفت من معالم الهدىٰ، وتستقيم علىٰ النهج الواضح لا تزيغها عنه فتنة، ولا تؤثر فيها ضلالة.

وقد ضرب الله المثل لقلب المؤمن في سورة النور بالزجاجة الشديدة الصفاء التي تلمع كما يلمع الكوكب الدري في أفق السماء[١].

فقلب المؤمن جامع لأوصاف ثلاثة هي: الصفاء والرقة والصلابة.

فهو لصفائه: ينفذ له نور الحق فيشع في جوانبه ويضيء حناياه.

وهو لصلابته: يرد الباطل ويأباه.

---

(١) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النور: الآية ٣٥].

وهو لرقته: رحيم، غير قاس ولا غليظ، تفيض منه الرحمة علىٰ كل من يحتاجه.

وأما قلب المنافق فضعيف لين قابل لكل ما يرد عليه من الشهوات أو الشبهات التي تنطبع صورها فيه كما تتطبع صورة الختم في الطين اللين الذي لا تزال تتراكم عليه وتعلوه وتعشش فيه حتىٰ يربد ويصير كما في الحديث: (**كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً**).

وقد أخبر النبي ﷺ عن كثير من الفتن التي أعلمه الله بالوحي أنها ستجري علىٰ أمته، وقد حذر من الخوض في لجتها، وأمر بالاعتصام عندها بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأن يأخذ المؤمن ما يعرف ويدع ما ينكر.

وفي صحيح البخاري وغيره: (**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمًا يتبع بها شعف الجبال ومواضع القطر يفر بدينه من الفتن**)[1].

ولكن أمر الله كان قدراً مقدورا.

<1> رواه البخاري في صحيحه في الإيمان (١٩).

وفي هذا الحديث يحدث حذيفة عمر عن الفتنة التي تموج موج البحر، ويقول له: إن بينك وبينها بابًا يوشك أن ينكسر، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو ذلك الباب الذي انكسر.

فما هو إلا أن قتل بيد الغدر اللئيم حتىٰ تحدرت الفتنة بعده تحدر السيل وهدرت هدير الموج، وقيض الله لها من أبالسة الشر ورؤوس المكر ممن تغلي مراجل قلوبهم بالحقد علىٰ الإسلام، من يذكي نارها ويشب أوارها حتىٰ أكلت فيمن أكلت الخليفة الثالث والشيخ الوقور ذا النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد حصار لداره لقي فيه هو وأهله أشد العناء.

وفي هذا الجو الذي يغلي بالفتن، والسيوف لا تزال مصلتة بيد الغدرة اللئام لم تجف بعد من هذا الدم الذكي الحرام بويع علي بالخلافة، وكان فيمن بايعه أخواه طلحة والزبير رضي الله عنهما.

ولكنهما لم يلبثا أن أحسا وخز الندم لخذلهما عثمان، فصمما علىٰ المطالبة بدمه، ونقضا ما في عنقيهما من بيعة علي، وقدما البصرة يستنفران أهلها، واستقدما إليهما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وكانت وقعة الجمل المشهورة.

ثم احتدم الخلاف بين علي ومعاوية وكانت موقعة صفين التي قتل فيها نحو ثلاثين ألفًا من العسكرين، ثم كانت [مسألة] التحكيم التي انتهت بخروج الخوارج الذين روعوا المجتمع الإسلامي بما ارتكبوه من فظائع حتىٰ نكَّل بهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معركة النهروان.

ثم كانت موقعة الحرة زمن يزيد بن معاوية واستباحة حرم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام يعيث فيه جند يزيد بالفساد بعد أن قتلوا معظم أهلها من أبناء الأنصار والمهاجرين، ثم استشهاد الحسين بكربلاء علىٰ يد جند عبيد الله بن زياد.

ثم كان حصار مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير وجنوده علىٰ يد الحجاج بن يوسف الثقفي في خلافة عبد الملك بن مروان...

إلىٰ آخر ما حفظه التاريخ من فتن وأحداث تموج بالناس موج البحر وتتتابع تتابع القطر[1].

<1> استطرد المؤلف – رحمه الله تعالىٰ – في الكلام عن الفتن التي تموج موج البحر، وإن الأسلم عدم الخوض فيما كان بين الصحابة رضي الله عنهم.

واستتبع هذا الخلاف السياسي خلاف من نوع آخر حول تفسير بعض العقائد الدينية، فقال الخوارج بكفر مرتكب الكبيرة، وحكموا عليه بالخلود في النار، وشاركهم المعتزلة في الأمر الثاني، ولكنهم لم يسموه كافراً بل جعلوه في منزلة بين المنزلتين.

ثم ظهرت بدعة القدرية التي حمل لواءها غيلان الدمشقي، ومعبد الجهني، ونُسب إليها بعض السلف كالحسن البصري.

ثم ظهرت بدعة الإرجاء يعني تأخير الأعمال عن الإيمان واعتقاد أنه لا يضر مع الإيمان ذنب.

وقد اتهم بعض الأئمة كأبي حنيفة – رحمه الله – بسبب رأيه في الإيمان، وهو أنه لا يزيد ولا ينقص.

ثم ظهرت بدعة الجعد بن درهم في نفي الصفات؛ وقد ضحىٰ به خالد بن عبد الله القسري في يوم عيد الأضحىٰ حيث خطب الناس وقال لهم: «اذهبوا إلىٰ أضحياتكم يتقبل الله منكم، فإني مضح اليوم بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولا كلم موسىٰ تكليما»، ثم نزل فذبحه.

ثم تبعه الجهم ابن صفوان الترمذي وغلا في النفي، وقال بخلق القرآن. وذهب إلىٰ الجبر المحض، وزعم أن العبد لا فعل له ولا اختيار.

ثم ظهرت بدعة المعتزلة حمل لواءها واصل بن عطاء، وتبعه عمرو ابن عبيد فقال بقول القدرية، ونفوا الصفات، وأوجبوا علىٰ الله بعقولهم أشياء وأنكروا رؤية الله يوم القيامة، وخرجوا علىٰ مقتضىٰ النصوص الصريحة، وحكموا العقل وحده في مسائل العقيدة.

ثم ترجمت كتب الفلسفة اليونانية وحكمة الهنود وآداب الفرس زمن بني العباس، فزاد الطين بلة، واتسع الخرق علىٰ الراقع، وجنحت بالناس الأهواء، وركبوا متن كل عمياء.

وجاءت الصوفية بألغازها وإشاراتها، وقالت بالحلول ووحدة الوجود، وزعمت الكشف والشهود، ولبَّست علىٰ الناس بأنواع المخاريق، وابتدعت في دين الله من البدع ما لا يحصيه إلا الله.

ثم كانت في العصور المتأخرة بدع البهائية والقاديانية والماسونية التي طال شرورها في كثير من الأقطار الإسلامية.

وهكذا تلاحقت الفتن علىٰ هذه الأمة ولا تزال حتىٰ تكون فتنة المسيح الدجال التي هي شرها وأشدها.

نسأل الله أن يعصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، إنه العلي الأعلىٰ الكريم الوهاب.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه.

❁ ❁ ❁

٩ تعاطف المؤمنين وتراحمهم (*)

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر جسده بالسهر والحمىٰ)**[1].

شرح المفردات

(مثل المؤمنين): المثل (بفتح أوله وثانيه)؛ معناه الحال والصفة والشأن العجيب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**﴾ [الرعد: ٣٥ – ٣٧].

وكذلك كل كلمة «مثل» ذكرت في القرآن أو في الحديث هي بمعنىٰ ذلك. وأما المثل (بكسر فسكون) فمعناها: الشبيه والنظير.

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣١ – العدد: ٢ – صفر ١٣٨٦هـ.

[1] رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠١١)، ومسلم في كتاب البر والصلة (٦٦).

والمؤمنين: جمع مؤمن، وهو اسم فاعل من آمن بمعنىٰ صدق، ومصدره الإيمان بمعنىٰ التصديق، واشتقاقه من الأمن، لأن من صدق فيما تقول قد أمنت تكذيبه لك ومخالفته إياك.

وأما الحقيقة الشرعية فهو تصديق القلب التام مع الإذعان والرضىٰ بجميع ما جاء به النبي ﷺ مما علم مجيئه به من الدين بالضرورة، وهو متناول بإطلاقه كذلك للإقرار باللسان وللعمل بالجوارح.

فالإيمان المطلق أي: الكامل لابد فيه من الثلاثة؛ فهو: قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**)[1].

ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات، فهي ليست كلها بدرجة واحدة، بل العقائد أصل في الإيمان، فمن أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده في الله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو

<١> رواه البخاري في الإيمان (٩) بلفظ: (بضع وستون).
ومسلم في الإيمان (٥٨).

اليوم الآخر أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة، كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنا والقتل، فهو كافر قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار.

وأما الفاسق الملي الذي يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها فأهل السنة والجماعة لايسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية، ولا يوجبون عليه الخلود في النار، كما تقول الخوارج والمعتزلة، بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الإيمان.

(**في توادِّهم**): هو بتشديد الدال، وأصله تواددهم فأدغم، والتواد تفاعل، فهو دال علىٰ المشاركة والمبادلة، كأنه قال: مثل المؤمنين في مودة بعضهم لبعض، وتقرب كل منهم إلىٰ أخيه بما يحب.

(**وتراحمهم وتعاطفهم**): هذه الكلمات الثلاث أعني: توادهم وتراحمهم وتعاطفهم. وإن كانت متقاربة في المعنىٰ إلا أن بينها فرقًا لطيفًا، كما يدل علىٰ ذلك عطف بعضها علىٰ بعض، فإن العطف يؤذن بالمغايرة.

فالتراحم معناه: أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان لا لسبب آخر. كما قال القرآن: ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾.

وفي الحديث الصحيح: (**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**)[١].

والتواد: المراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي والمشاطرة في المسرات والأحزان.

والتعاطف: أن ينعطف بعضهم علىٰ بعض أو يعينه ويقويه كما يعطف طرف الثوب عليه لتقويته.

(**مثل الجسد الواحد**): الجسد والجسم والجثمان بمعنىٰ واحد، وهو ذلك المؤلف من أعضاء مختلفة، وقيل: الجسم أعم لأنه للحي وغيره بخلاف الجسد والجثمان فلا يكونان إلا لحي.

أي مثلهم كمثل الجسد بالنسبة إلىٰ أعضائه، ووجه الشبه هو التوافق في الراحة والتعب ولهذا قال:

(**إذا اشتكىٰ منه عضو**): العضو واحد الأعضاء، وهو الجزء المتميز من الجسم كالمفصل، والمراد إذا تعب وألم.

<١> رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٩٤٣)، والترمذي في كتاب البر (١٩١٩ - ١٩٢١)، وأحمد في المسند (٢/٢٠٧).

(تداعىٰ له سائر الجسد) : أي دعا باقي الأعضاء بعضها بعضًا إلىٰ مشاركة ذلك العضو في الألم.

(بالسهر والحمىٰ): هو الأرق وقلة النوم، التداعي بالسهر لأن الألم من شأنه أن يمنع النوم. وأما الحمىٰ فهي ارتفاع درجة الحرارة، وهي أنواع مختلفة باختلاف الأسباب المهيجة لها، والتداعي بالحمىٰ لأن قلة النوم تثيرها.

وتأمل هذا التشبيه الرائع حيث شبه عليه السلام سريان الألم في بقية الأعضاء، وتأثرها بما حصل للعضو المريض، ومقابلتها له بالسهر والحمىٰ بقوم يتداعون لدفع شر نزل بهم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث

يصور الرسول ﷺ الأخوة الإيمانية التي تربط بين المؤمنين وتقوم وشيجتها بينهم مقام صلات النسب ووشائج القرابة هذا التصوير الأخاذ بمجامع القلوب لروعته وجماله.

فيشبه الجماعة المسلمة في تضامنها، ووحدة مشاعرها وأحاسيسها، وتجاوب آمالها وآلامها، واتفاق أهدافها ومقاصدها، واشتراك المنافع والمصالح بين أفرادها، يشببها في ذلك كله – وفي أكثر

من ذلك كله – بجسد واحد له أعضاء مختلفة إلا أنها مترابطة ومشدود بعضها إلىٰ بعض.

فكلما ألم من هذه الأعضاء عضو شاركته سائر الأعضاء في ألمه، فأرقت لأرقه، وثارت بها الحمىٰ من أجله، وسارعت إلىٰ نجدته ودرء الخطر عنه، فلا تكاد تذوق طعم الراحة حتىٰ يسترد ذلك العضو عافيته، ويزول عنه ما ألم به.

فكذلك يجب أن تكون حال الجماعة بالنسبة إلىٰ كل فرد منها؛ يفرح بعضها لفرح البعض، ويحزن لحزن البعض، ويتقاسمون الهموم والآلام، ويتواسون في المصائب والملمات.

وذلك أنهم يحسون بأن حياة الجماعة وسلامتها رهن بسلامة كل فرد من أفرادها. فإذا وقع بأحدهم شرٌ أو نزل به مكروه لم يعتبروه أمراً يخص ذلك الفرد وحده، ولكنه أمر يمس كيان الجماعة كلها، ويتهددها بالخطر، فهبوا جميعًا لنجدته ودرء الخطر عنه.

فانظر إلىٰ روعة ذلك التشبيه الذي لا يخرج إلا من مشكاة النبوة؛ حيث شبه الأمة بالجسد الواحد، وشبه أفرادها بأعضاء ذلك الجسد، وشبه ما بينهم من روابط الإيمان وعلائق الإسلام بما يكون من أوتار

ورباطات تشد بعض الأعضاء إلىٰ بعض وتصل بينها ، ثم شبه ما يجب أن يكون بينهم من تواد وتعاطف وتراحم بما يكون بين الأعضاء من مشاركة في الراحة والتعب.

ومن محاسن هذا التشبيه أن الأمة قد شبهت بالجسد، وأعضاء الجسد مختلفة؛ فمنها أعضاء رئيسة كالدماغ والقلب ونحوها، ومنها ما هو دون ذلك في الرتبة.

وكذلك الأمة فيها العلماء والأمراء الذين ينزلون منها منزلة الرأس المدبر، وفيها كذلك جند وصناع يشبهون من الجسد الساق والذراع.

ومن محاسنه – أيضًا – أن أعضاء الجسد علىٰ اختلاف وظائفها. متضافرة علىٰ درء الخطر عن أي عضو منها؛ لشعورها بأن سلامتها جميعًا مرتبطة بسلامته، وأن الفساد الحاصل فيه قد يسري إليها جميعًا؛ فيتلف الجسم كله، ويختل نظامه، ويتداعىٰ بناؤه.

وهكذا الأمة إذا لم تعمل علىٰ سلامة أفرادها جميعًا من غوائل الفقر والجهل والمرض، وعلىٰ حمايتهم من الانحراف والشذوذ والأخلاق الضارة والعادات السيئة؛ فإنها تعرض نفسها لخطر الانحلال والفناء.

وتأمل رحمك الله – علىٰ ضوء هذا الحديث – في حال من لا يألو الجماعة المؤمنة تصدعًا وفرقة، ولا يبغي أمرها إلا عوجا، ويعمل جاهداً علىٰ توهين بنائها وإشاعة البغضاء بين أفرادها، وتقطيع ما بينهم من رحمة الإيمان، وأخوة الإسلام، بالدس والوقيعة، ونشر مقالة السوء عن رؤوسها، ولا هم له إلا أن يشفي غيظه، وينفس عن الحقد الذي أكل قلبه.

أليس هو بمنزلة العضو الفاسد الذي نَغَل[1] وأعضل به الداء، واشتدت عليه العلة، فيجب بتره واستئصاله ليستريح الجسم كله؟

وأخيراً ندعو الله بما دعا به كليمه موسىٰ عليه السلام: (اللَّهم إليك المشتكىٰ، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

❁ ❁ ❁

---

[1] نغل: تآكل وعطب.

١٠ مثل المؤمـــن والكـافر(*)

عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (**مثل المؤمن كمثل الخامة**<١> **من الزرع تفيئها**<٢> **الريح، تصرعها مرة، وتعدلها أخرىٰ حتىٰ تهيج. ومثل الكافر كمثل الأرزة**<٣> **المجذية علىٰ أصلها لا يفيئها شيء حتىٰ يكون انجعافها مرة واحدة**<٤>)<٥>.

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣١ – العدد: ٣ – ربيع الأول ١٣٨٦هـ.

<١> الخامة: الزرع أول ما ينبت علىٰ ساق واحد.

<٢> تفيئها: تميلها.

<٣> الأرزة: شجرة من فصيلة الصنوبريات شديدة الطول والغلظ لا يحركها هبوب الرياح.

<٤> انجعافها: انقلاعها.

<٥> متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب المرضىٰ/ باب (١) ما جاء في كفارة المرض [١٠/١٠٧ (٥٦٤٣) فتح].

وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٤/٢١٦٣ (٢٨١٠).

شرح المفردات

(**الخامة من الزرع**): الحزمة الرطبة منه، والجمع خام وخامات، والخام من الثياب الذي لم يقتصر أي لم يبيض.

(**تفيئها الريح**): يقال: فاء الرجل يفيء فيئًا، بمعنىٰ رجع، وفي التنزيل: ﴿**حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾[الحجرات: ٩]، أي: حتىٰ ترجع إلىٰ الحق.

ويقال: فاء الظل يفيء فيئًا، رجع من جانب المغرب إلىٰ جانب المشرق، وجمع فيء: فيوء وأفياء؛ مثل: بيوت وأبيات، ومعنىٰ تفيئها الريح: تميلها، فهو من أفاءه بمعنىٰ أماله.

(**تصرعها مرة**): هذه الجملة جاءت مبينة لما قبلها، ولهذا فصلت عنها ولم تعطف عليها.

ومعنىٰ تصرعها: تغلبها وتهوي بها حتىٰ تكاد لشدة إناخة الريح لها أن تمس الأرض.

(**وتعدلها أخرىٰ**): أي تقيمها وتنهضها، يقال: عدل العود يعدله، أي: نصبه وأقامه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧**﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، أي: نصب قامتك.

(**حتىٰ تهيج**): يقال: هاج الزرع يهيج هياجًا إذا اصفر ويبس وبلغ أبان حصاده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**﴾ [الزمر: ٢١].

(**ومثل الكافر كمثل الأرزة**): هي واحدة الأرز وهو شجر الصنوبر، وقيل شجر آخر يشبهه، وهو معروف بقوته وشدة رسوخه في الأرض يكثر وجوده في لبنان.

ويقال: أرز يأرز مثلث الراء في المضارع أروزًا كجلوس بمعنىٰ انقبض وتجمع. ويقال أرزت الحية: لاذت بجحرها وثبتت فيه.

وجاء في الحديث: (**إن الإيمان ليأرز إلىٰ المدينة كما تأرز الحية إلىٰ جحرها**)[١].

ويقال كذلك: أرزت الليلة إذا اشتد بردها، والآرزة من الإبل الشديدة القوية، والأريز الصقيع واليوم البارد، وأريزة القوم عميدهم، والمأرز كمجلس الملجأ.

---

(١) رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٦)، ومسلم في الإيمان (٢٣٢، ٢٣٣).

والحاصل أن مادة أرز تدل علىٰ معنىٰ القوة والشدة.

(**المجذية علىٰ أصلها**): أي الثابتة المتمكنة في أرضها، فلا تنال منها العواصف، ولا تؤثر فيها الأعاصير.

(**حتىٰ يكون انجعافها**): يقال: جعفه جعفًا فانجعف، يعني صرعه وضرب به الأرض فانصرع، ومنه الحديث: (**أنه مر بمصعب بن عمير وهو منجعف**)[١]؛ أي: مقتول؛ وكان حامل لواء المسلمين يوم أحد.

ويقال: جعف الشيء جعفًا قلبه، وجعف الشجر يجعفها جعفًا فانجعفت يعني قلعها.

والمراد تشبيه الكافر في بقائه علىٰ حاله من النعمة والصحة وكثرة المال والولد غير مرزوء[٢] في نفسه وأهله وماله وولده حتىٰ يموت فيلقىٰ الله بذنوبه وافرة كشجرة الأرز في ثباتها علىٰ حالها حتىٰ يأتيها من يقلعها.

<١> لم نقف عليه.

<٢> مرزوء: منقوص ومصاب ومبتلىٰ.

المعنى الإجمالي للحديث

يرسم النبي ﷺ في هذا الحديث الكريم لكلٍ من المؤمن والكافر صورة صادقة تنطبق علىٰ حاله، وتفسر موقف كل منهما حيال المصائب والأحداث التي تنوبه في هذه الحياة ومدىٰ استجابته لها وتأثره وانتفاعه بها.

فهو يشبه المؤمن إذ لا يزال البلاء يلم به الفينة بعد الفينة، تارة في نفسه بالمرض والآلام، أو بتسلط بعض السفلة واللئام من الناس يؤذونه ويكيدون له بأنواع الكيد، ويشيعون عنه مقالة السوء، وتارة في ماله بالآفات والجوائح التي تذهب بكله أو بعضه، وتارة في أهله وولده بالموت، أو بأن يراهم علىٰ حالة تسوءه وتحزنه إلىٰ غير ذلك من أنواع المصائب التي يفتن بها المؤمن؛ كما يفتن الذهب علىٰ النار؛ إلىٰ أن يستوفي أجله الذي كتب له في هذه الحياة.

ولكنه في خلال هذه المحن، وبين نوبات هذه المصائب، يجد من عناية الله ولطفه ما يجبر كسره ويقوي عزمه وينعش نفسه من البلاء إلىٰ العافية، ومن جهد الشقاء إلىٰ بحبوحة الرخاء.

فالحديث يضرب لهذا المؤمن المتردد بين نوائب الخير والشر مثلاً بالخامة من الزرع، لا تزال الريح تداعبها وتميلها عن استقامتها؛ فتارة تصرعها فتهوي بها منخفضة ذاهبة ذات اليمين وذات الشمال، وتارة تسكن عنها فتعود سيرتها الأولىٰ من الاستواء والاعتدال، ويظل هذا شأنها حتىٰ تيبس وينضب ماؤها ويجيء أوان حصادها وتبلغ أجلها المحتوم.

ومما تضمن هذا التشبيه من الأسرار والدقائق: أن البلاء فيه بالنسبة للمؤمن شبه بالريح بالنسبة للخامة، والريح من شأنها أن تصلح الزرع وتساعد علىٰ نموه ونضوجه لأنها تقلبه ذات اليمن وذات الشمال في صعود وهبوط، فتواجهه أشعة الشمس، وتتغلغل في ثناياه، فتكسبه الحياة والقوة حتىٰ يستوي قائمًا علىٰ سوقه، ثم يهيج في عاقبة أمره.

فكذلك البلاء للمؤمن يصهره ويصفي جوهره، ويكسبه قوة ومنعة، ويزيد من تجاربه وخبرته، فهو له كالنذر المتوالية والمواعظ المتعاقبة صادفت قلبًا واعيًا، وضميراً حيًا مستجيبًا، فأفادته وأثرت فيه.

ولا يزال المؤمن علىٰ ذلك حتىٰ يوافيه أجله الذي كتب له، فيلقىٰ الله – عز وجل – وهو قرير العين منشرح الصدر بما كسب في الدنيا من خير، وبما أعد له في الآخرة من أجر.

وأنه لا مؤدب للمؤمن كالمحنة التي تنزل به فتمحص قلبه وتطهره مما ألم به من سنة[١] الهوىٰ ورقاد الغفلة، وتزعجه عما قد يكون متلبسًا من أحلام المنىٰ وضلال الشهوة، وتفيقه من سكره؛ فإذا هو آيب إلىٰ ربه، تائب من ذنبه، آخذ في الاستعداد والتأهب ليوم الميعاد.

فما أعظم المحنة حين تبدل حال المؤمن من ضعف إلىٰ قوة، ومن قسوة إلىٰ رحمة، ومن غرة إلىٰ صحوة، ومن عوج وعمىٰ إلىٰ استقامة ورشاد، ومن اغترار وتفريط إلىٰ حذر ومبادرة.

وفي الحديث: (**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وأهله وماله حتىٰ يلقىٰ الله وما عليه خطيئة**)[٢].

<١> سنة: السِّنة أول النوم.

<٢> رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٤)، وأحمد في مسنده (٢/٢٨٧، ٤٥٠).

وفي الحديث الآخر: (**إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبد شراً أمسك عنه حتىٰ يوافيه بذنبه يوم القيامة**)[١].

وأما الكافر والمنافق فما أشنع حاله وما أسوأ عاقبته؛ يترك كالبهيمة السائمة، يرتع في مراتع اللهو، ويخوض في بؤر الفسق، ويكرع من المشارب الآسنة ،ويرد الموارد المنتنة وهو سادر في غيه، غافل عن عاقبة أمره لا يتأثر لحادث، ولا يرق لموعظة، ولا ينتفع بما يمر عليه من محن وأرزاء.

ولا يزال – هكذا – في جموده وتبلده حتىٰ تقرعه قارعة الموت، وتنزل بساحته المنون؛ فيموت ميتة جاهلية، لا تتبعه إلا الندامة والحسرة وسوء المصير.

وما أشبهه في ذلكم بالأرزة الثابتة في أرضها المجذية علىٰ أصلها، الصلبة الجذع والساق والفروع، لا تنال منها الزعازع ولا تؤثر فيها العواصف، ولا تزال هكذا حتىٰ تنقطع من جذورها، فإذا هي هشة

---

[١] رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣٩٦)، وأحمد في مسنده (٤/٨٧). وهو في صحيح الجامع (٣٠٥).

ممدودة علىٰ الأض؛ قد فارقها ما كان لها من شموخ وقوة.

فانظر كيف يصور لنا هذا الحديث العظيم حال كل من الفريقين تلك الصورة الرائعة التي تأسر الألباب، وتأخذ بمجامع القلوب.

❁ ❁ ❁

⊂ ١١ ⊃ مثل البخيل والمنفق(*)

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (**مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلىٰ تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت علىٰ جلده حتىٰ تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع**)<1> متفق عليه.

شرح المفردات

(**مثل البخيل والمنفق**) : المثل (بفتحتين)؛ معناه: الحال والصفة العجيبة.

والبخيل: فعيل؛ من البخل وهو الشح وإمساك المال وعدم إنفاقه فيما يجب من أنواع البر ووجوه الخير؛ وهو من صار البخل له عادة

(*) الهدي النبوي – المجلد : ٣١ – العدد: ٤ – ربيع الآخر ١٣٨٦هـ.

<1> رواه البخاري في كتاب الزكاة (١٤٤٤)، ومسلم في كتاب الزكاة (٧٥، ٧٦).

وسجية. فهو أبلغ من: باخل، يقال: بخل الرجل (بضم الخاء)؛ صار بخيلا.

وأما المنفق: فهو اسم فاعل من الإنفاق بمعنىٰ البذل والسخاء وإهلاك المال فيما يجب، وبالقدر الذي يجب.

(**كمثل رجلين عليهما جبتان**): روي: جبتان (بالباء) تثنية جبة، وهي الكساء المعروف. وروي: جنتان (بالنون) تثنية جنة، بمعنىٰ الدرع، وجزم بذلك بعض المحدثين أنه بالنون لا غير؛ ورد عليه بعضهم بأن رواية النون تصحيف، وأن الرواية الصحيحة جبتان بالباء.

ولكن الحق أن رواية النون أقرب إلىٰ المعنىٰ المقصود؛ فإن الدرع لا تسمىٰ جبة بالباء بل بالنون.

(**من حديد**): من لبيان الجنس، والحديد هو المعدن المعروف.

والحكمة في إيثاره علىٰ غيره قيل: للإعلام بأن القبض والشح من جبلة الإنسان وطبعه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ**﴾ [النساء: ١٢٨].

ولهذا يضاف إليه؛ كما في قوله سبحانه: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وأما السخاء والجود فهو من فضل الله وتوفيقه يمنحه من يشاء من عباده.

(**من ثديهما إلىٰ تراقيهما**): من هنا لابتداء الغاية؛ يعني: أن الجبتين ممتدتان أو كاسيتان من ثديهما (بضم الثاء وكسر الدال وياء مشدودة في آخره جمع ثدي) إلىٰ تراقيهما.

وقوله: تراقيهم: جمع ترقوة (بضم التاء والقاف بينهما راء ساكنة)؛ وهي العظم الذي يكون بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين؛ وزعم بعضهم أنه خاص بالإنسان فلا يكون لغيره من أنواع الحيوان.

(**فأما المنفق**): هذا تفصيل للتشبيه السابق وبيان حال كل من الرجلين مع جنته، وكأنه كنّىٰ بالجنة عن المال الذي يقتنىٰ ليكون درعًا واقية من نوازل الدهر وسهام المطاعن، وبين أن الذي يحسن الانتفاع به في تلك الوقاية هو المنفق دون البخيل.

(**فلا ينفق إلا سبغت**): يعني: أنه لا ينفق نفقة ولا يخرج شيئًا من ماله إلا سبغت عليه جنته بمعنىٰ: امتدت وطالت، يقال: درع سابغة؛ أي: طويلة كاسية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ**﴾، وهوكناية عن حمايتها لعرضه، ودفعها سهام البلاء عنه ما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

(**أو وفرت**): أو هنا شك من الراوي، ووفرت (بتخفيف الفاء) من الوفرة بمعنىٰ: الزيادة والكثرة، وهو بمعنىٰ سبغت.

(**حتىٰ تخفي بنانه وتعفو أثره**): يعني أنها تطول من جهة كميها حتىٰ تخفي بنانه؛ وهي أطراف أصابعه، وتطول من جهة ذيلها حتىٰ تجر علىٰ الأرض فتغطي أثر مشيه، فحتىٰ هنا غاية لطول الجبة من جميع الجهات.

قال الحافظ في الفتح: (والمعنىٰ أن الصدقة تستر خطاياه كما يغطي الثوب الذي يجر علىٰ الأرض أثر صاحبه إذا مشىٰ بمرور الذيل عليه).

(**وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها**):

هذا بيان لحال البخيل بعد بيان حال المنفق؛ فهو لا يهم ينفق ولو كانت قليلة إلا غلبه شح طبعه وكزازة نفسه، فينقبض صدره من ذلك، ويرجع عنه.

وكنّىٰ عن ضيق صدره بالنفقة بلصوق حلق الدرع علىٰ جسده ولزوم كل حلقة منها مكانها.

وقـــد جـــاء في رواية: (**إلا عـــضت**)؛ وفي راية لمسلم: (**إلا انقبضت**).

والحلقة: واحدة الحلق، وهي الحديدة المستديرة المفرغة الوسط، وتطلق أيضًا علىٰ كل ما هو كذلك؛ يقال: حلقة الدروس وحلقة الذكر، ويقال: جلسوا حلقًا.

(**فهو يوسعها فلا تتسع**): أي يريد توسيعها بالبذل فتشح نفسه ولا تطاوعه.

المعنى الإجمالي للحديث

يعتبر الإسلام بحق أرقىٰ نظام عرفته البشرية، وأكمل نموذج للتكافل الاجتماعي والتعاون المثمر بين أفراد الأمة؛ فكل فرد في الإسلام مسؤول عن صالح المجموع كله، مطالب بأن يقدم له من كل ما يقدر عليه من علم أو قوة أو مال، وأن لا يعيش لخاصة نفسه ممسكًا فضله عن غيره.

والإسلام لا يرضىٰ أن يبقىٰ المال حجرًا محجورًا تمتلئ به خزائن طائفة من الناس، بينما لا يجد غيرهم ما يمسك الرمق ويقيم الأود، بل

يهيب بأهل الغنىٰ والجدة أن يتعاهدوا إخوانهم المحرومين.

وإن المتدبر لآيات القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد بحق أنهما لم يحفلا[1] بشيء من أبواب الخير كما حفلا بالحث علىٰ الإنفاق والترغيب في بذل المال في كل الوجوه التي يحبها الله عز وجل.

فالقرآن يسمي النفقة قرضًا يقرضه العبد ربه؛ قال تعالىٰ من سورة البقرة: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال في سورة التغابن: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾**﴾ [التغابن: ١٦ – ١٨].

ويجعل القرآن إيتاء المال المستحقة من أعظم خصال البر؛ قال تعالى: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ**﴾ [البقرة: ١٧٧، ١٧٨].

---

(١) يحفلا: يهتما.

وقال في وصف الأبرار من سورة الدهر: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

ويضرب المثل للمنفق بمن وضع حبة في الأرض فأخرجت له سبعمائة حبة، بل ويعده بما هو أكثر من ذلك؛ قال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

[البقرة: ٢٦١].

ويجعل القرآن الإنفاق قرين الإيمان ودليلاً عليه؛ قال تعالىٰ من سورة الحديد: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

إلىٰ غير ذلك من الآيات التي لا تحصىٰ كثرة في بيان فضل النفقة وما أعده الله للمتقين من كريم المثوبة وعظيم المغفرة. وفي بيان ذم البخل وتحقير أهله وما أعده من أنواع الخزي والهوان للباخلين والمانعين.

وأما السنة الكريمة فقد أتت - في هذا الباب - بما يكفي ويشفي مما فيه توضيح وتعضيد لآيات الكتاب، وحسبك منها قوله ﷺ في

الحديث الصحيح: (**والصدقة برهان**)[١].

فجعلها هي الدليل علىٰ صدق الإيمان.

وقوله في حديث أبي هريرة المتفق عليه: (**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتلقاها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتىٰ تصير مثل الجبل العظيم**)[٢].

وقوله في حديث أبي مالك الحارث الأشعري: (**وعليكم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أوثقه العدو ثم قدموه ليضرب عنقه فقال: أنا أفتدي نفسي منكم بالقليل والكثير، فافتدىٰ نفسه منهم**)[٣].

ثم تأمل نفيه الإيمان عمن يبيت شبعان وله جار جائع، وقوله في الصحيح: (**شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع**)[٤].

<١> رواه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة (١).

<٢> رواه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد (٧٤٣٠)، ومسلم في كتاب الزكاة (٦٣، ٦٤).

<٣> رواه الترمذي في الأمثال (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٢٩٨).

<٤> صحيح: أخرجه أبو داود/ ك الجهاد في باب (٢٢) في الجرأة والجبن =

وفي الحديث الذي معنا يضرب النبي ﷺ لكل من المنفق والبخيل مثلاً يصور حاله ويوضح حقيقة نفسه؛ فيشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعًا يتحصن بها من سهام عدوه، فصبها علىٰ رأسه ليلبسها والدرع أول ما تقع علىٰ الرأس إلىٰ الثديين إلىٰ أن يدخل الإنسان يديه في كميها.

فجعل المنفق كمن لبس درعًا سابغة فاسترسلت عليه حتىٰ سترت جميع بدنه.

وقد قال بعضهم: إن هذا وعد للمتصدق بالبركة وستر العورة والصيانة من البلاء؛ فإن جنة الحديد لا تعد للستر - فقط - بل له وللصون من الآفات؛ ولهذا ورد في الحديث: (**أن الصدقة تدفع البلاء**)[1].

= ٣/٢٦ (٢٥١١)، وأحمد ٢/٣٠٢، ٣٢٠. وصححه أحمد شاكر [التعليق علىٰ المسند ١٥/١٦٤ (٧٩٩٧)]، وصححه أيضًا الألباني [صحيح سنن أبي داود ٢/٤٧٧ (٢١٩٢)].

<١> من ذلك حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: (باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطىٰ الصدقة).

رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٣٥٣) وإسناده ضعيف. =

وجعل البخيل كمثل رجل غُلّت يداه إلىٰ عنقه، فكلما أراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته؛ وهو معنىٰ قوله في بعض الروايات: (**قلت وانقبضت**). أي تضامت واجتمعت.

والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح لها صدره، وطابت بها نفسه، وتوسعت في الإنفاق.

وأما البخيل فإذا حدث نفسه بالصدقة وهم بها، شحت بها نفسه، وضاق لها صدره، وانقبضت يداه، فيكون ذلك سببًا للقدح في عرضه والنيل من كرامته كما يكون هدفًا لسهام البلاء.

فتأمل هذا المثل الرائع الذي لا يمكن أن يخرج إلا من مشكاة النبوة، ثم انظر أي الرجلين تحب أن تكون؟

نسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يقينا شح أنفسنا حتىٰ نكون من عباده المفلحين . . آمين.

وحديث علي رضي الله عنه بنحوه. رواه الطبراني في الأوسط (٥٦٤٣). وإسناده ضعيف أيضًا. وانظر مجمع الزوائد (٣/ ١١٠).

١٢ عقـــوق الأمـــهات(*)

عن أبي عيسىٰ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعًا وهات، ووأد البنات. وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**)(١).

شرح الحديث

(**عن أبي عيسىٰ المغيرة بن شعبة**): ثقفي كوفي أسلم عام الخندق، وروىٰ عن النبي ﷺ جملة صالحة من الأحاديث.

ولاه عمر رضي الله عنه البصرة ثم نقله عنها إلىٰ الكوفة فلم يزل عليها حتىٰ قُتل عمر فأقره عثمان عليها ثم عزله، وشهد اليمامة وفتح الشام، وذهبت عينه يوم اليرموك، وشهد القادسية وفتح نهاوند، وكان علىٰ ميسرة النعمان بن مقرن، واعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان ومشهد

(*) الهدي النبوي – المجلد : ٣١ – العدد: ٥ – جمادىٰ الأولىٰ ١٣٨٦هـ.

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر (٥٩٧٥).

الحكمين، واستعمله معاوية علىٰ الكوفة فلم يزل عليها حتىٰ توفي بها سنة ٥٠ من الهجرة، وهو أول من وضع ديوان البصرة.

(**إن الله حرم عليكم**): أتي بالجملة مؤكدة مع تقديم لفظ الجلالة لتأكيد الحرمة، وإدخال الهيبة في قلوب السامعين.

والتصريح بلفظ التحريم يدل علىٰ أن هذه الأمور الثلاثة من كبائر الذنوب بل هي أكبر من أكبرها.

والضمير في (عليكم) للصحابة الذين توجه إليهم الخطاب، وهو متناول الجميع من بعدهم إلىٰ يوم القيامة، وهكذا كل الخطابات التي وردت في الكتاب والسنة.

(**عقوق الأمهات**): هذا هو أول المحرمات الثلاثة، وإنما قدمه لأهميته وكثرة وقوعه.

وإنما اقتصر علىٰ الأمهات مع تحريم عقوق الآباء - أيضًا - لأن الاستخفاف بهن أكثر لضعفهن وعجزهن بخلاف الآباء، ولينبه علىٰ تقديم برّهن علىٰ بر الأب.

فقد جاء في بعض الأحاديث: (أن رجلاً قال يا رسول الله: من أبر؟ قال: **أمك**. قال ثم من؟ قال: **أمك**؛ قال: ثم من؟ قال: **أمك**؛ قال:

ثم من؟ قال: **أبوك**)[١].

والعقوق (مصدر): عق أمه يعقها (بالضم) عقوقًا ومعقة فهو عاق، وعقق كعمر، والجمع عققة.

والمعنىٰ إيذاؤها والإساءة إليها بالقول أو باليد حتىٰ يدخل فيه إغماضة العين وإشاحة الوجه.

وقد نهىٰ الله عز وجل عن قول: (أف) للوالدين وعده عقوقًا؛ فقال تعالىٰ: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا** ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

(**ومنعًا وهات**): روي - هكذا - منعًا (بالتنوين)، وفي رواية (بغير تنوين)؛ وهو مصدر منع يمنع، والمقصود ما وجب أداؤه من الحقوق.

وأما هات (بكسر التاء) فهو أمر من الإتيان: وأصله: آت (بهمزة ممدودة ثم سهلت بقلبها هاء) وقيل: إنه اسم فعل أمر، والمشهور الأول

---

[١] رواه البخاري في كتاب الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٤٨).

للحوق الضمائر به، يقال: هات يا رجل وهاتي، وهاتيا وهاتوا، وهاتين، والمقصود به هنا: طلب ما ليس له بحق.

قال الحافظ: الحاصل من النهي منع ما أمر بإعطائه وطلب ما لا يستحق.

(**ووأد البنات**): أي دفنهن علىٰ قيد الحياة؛ يقال وأد البنت يئدها وأداً فهي موءودة، قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾**﴾ [التكوير: ٨، ٩].

وإنما خص البنات بتحريم وأدهن لأنه الواقع، فتوجه النهي إليه لا أن الحكم مخصوص بالبنات بل هو حكم عام.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ تلك العادة عند العرب في سورة النحل حيث يقول: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾**﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

قيل: إن أول من فعل ذلك هو قيس بن عاصم التميمي. كان أغار عليه بعض أعدائه فأخذ ابنته فاتخذها لنفسه ثم اصطلحا؛ فخيرها

فاختارت زوجها علىٰ أبيها؛ فآلىٰ قيس علىٰ نفسه أن لا تولد له بنت ألا دفنها حية، فتبعه بعض العرب علىٰ ذلك.

وكانوا فيه فريقين: من يئد البنات خشية الفقر، ومن يئدهن خشية العار.

علىٰ أن الفضيلة والعاطفة الحية لا تعدم أن تجد في كل زمان من يأخذ بناصرها؛ فقد قام تميمي آخر وهو صعصعة بن ناجية جد الفرزدق – الشاعر المشهور – يفدي هؤلاء الموءودات من حر ماله ويربيهن وينفق عليهن، وقد بقي كل من قيس وصعصعة إلىٰ أن أدركا الإسلام فأسلما ولهما صحبة.

وكانوا في الوأد علىٰ طريقتين:

أولاهما: أن يأمر امرأته عند الوضع أن تطلق إلىٰ جانب حفيرة، فإن وضعت ذكراً أبقاه، وإلا ألقاه فيها.

أُخراهما: أن يصبر علىٰ البنت إلىٰ أن تبلغ السادسة، ثم يأخذها وقد زينتها أمها، فيأتي بها إلىٰ حفرة كان قد حفرها قبل، فيقول لها: انظري قعرها، ويرميها من ورائها، ويطمها بالتراب.

(**وكره لكم قيل وقال**) : التعبير بلفظ الكراهة – هنا – دليل علىٰ أن هذه الأمور الثلاثة أخف حرمة من سابقتها .

وقيل وقال : (بفتح اللام بغير تنوين) وفي رواية : قيلا وقالا (بالتنوين)؛ والأولىٰ أشهر .

واختلف في قيل وقال، فذهب الجوهري إلىٰ أنهما اسمان، مستدلاً بدخول (أل) عليه حيث يقال : كثرة القيل والقال .

وتعقبه ابن دقيق العيد بأنهما لو كانا اسمين كالقول لم يكن لعطف أحدهما علىٰ الآخر فائدة .

وقيل : إنهما مصدران كالقول .

والمراد من الحديث : الإشارة إلىٰ كراهة كثرة الكلام؛ لأنها مفضية إلىٰ الخطأ، وكرر المصدر مبالغة في الزجر .

وقد رد ذلك صاحب المصباح حيث قال : القيل والقال اسمان من قال يقول لا مصدران قاله ابن السكيت، ويعربان بحسب العوامل؛ وقيل : هما في الأصل فعلان ماضيان جعلا اسمين واستعملا استعمال الأسماء، وأبقي فتحهما دلالة علىٰ الأصل .

والمراد به: النهي عن حكاية أقوال الناس، والبحث عنها ليخبر غيره فيقول: قال فلان كذا وقيل لفلان كذا. ولعل هذا الرأي أجدر الآراء بالقبول.

(**وكثرة السؤال**): السؤال مصدر سأل يسأل بمعنىٰ طلب وهو – هنا – اسم جنس محلىٰ بأل ليعم جميع أنواع السؤال، فيدخل فيه سؤال المال لنفسه من غير حاجة، والسؤال عن المشكلات والمعضلات بغير ضرورة إظهاراً للقدرة أو تعجيزاً للمسؤول، والسؤال عما لا يعنيه من أخبار الزمان، وسؤال إنسان بخصوصه عن تفصيل أحواله، وقد يكره ذلك.

أما السؤال لضرورة فجائز ولا كراهية فيه.

علىٰ أن قوله: وكثرة السؤال: فيه إشارة إلىٰ أن أصل السؤال ليس مكروهًا، ولكن المكروه هو كثرته والإلحاح فيه.

(**وإضاعة المال**): يعني تبذيره وإنفاقه في غير الوجوه المأذون فيها من مقاصد الدنيا والآخرة، وترك حفظه في أماكن الحفظ والمنع من إضاعته؛ لأن الله تعالىٰ جعل المال قياما لمصالح الناس وفي تبذيره وإضاعته تفويت لتلك المصالح علىٰ المبذر وعلىٰ غيره من أصحاب الحقوق فيه.

ومن إضاعة المال إنفاقه في وجوه البذخ وألوان الترف الزائدة وإن كانت مباحة.

قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

المعنى الإجمالي للحديث

يعتبر هذا الحديث من جوامع النبي ﷺ فقد تضمن جملة صالحة من المكارم ومحاسن الآداب؛ حيث نهىٰ فيه عن عقوق الأمهات.

ولا شك أن للأم حقًا كبيرًا علىٰ ولدها؛ فقد حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وسهرت علىٰ إرضاعه وتربيته، وتكبدت في سبيل ذلك أعظم المشاق؛ وهذا مما يضاعف حقها في البر والتلطف والإحسان. فإيذاؤها والإساءة إليها يعتبر نكرانًا لهذه الحقوق، وهو من أكبر الذنوب بعد الإشراك بالله عز وجل.

وقد جعل الرسول ﷺ (**الجنة تحت أقدام الأمهات**)[1].

---

(١) الحديث بهذا اللفظ موضوع. رواه ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٣٤٧) =

ثم نهىٰ عن خصلة أخرىٰ لا تقل عن سابقتها فحشًا وشناعة؛ وهي ما يعمد إليه بعض من لا خلاق لهم ممن لا يحسون بتبعة ولا يقدرون مسؤولية ولا يحترمون حقوق غيرهم، فتراهم إذا ندبوا لدفع ما وجب عليهم من حق بخلوا ومنعوا حرصًا منهم وكزازة، في الوقت الذي يسعون فيه للحصول علىٰ ما ليس لهم بحرص.

وهذا إنما ينشأ عن طبع فاسد، وحرص قاتل، وأنانية مستبدة.

وأما ثالثة الدواهي: فهي وأد البنات، وما أدراك ما وأد البنات، تلك العادة الجاهلية التي تدل علىٰ منتهىٰ القسوة والوحشية والتي تجافي الخلق الكريم والطبع المستقيم والإنسانية الرحيمة العادلة.

ثم بين رسول الله ﷺ بعد ذلك الأمور التي يكرهها الله من عباده:

= وقال: هذا منكر. وهو في السلسلة الضعيفة (٥٩٣).

ولكن يغني عنه حديث الصحابي الذي قال له النبي ﷺ: (**ألك أم؟**) قال: نعم. فقال ﷺ: (**فالزمها، فإن الجنة تحت رجلها**).

رواه النسائي في سننه (٢/ ٥٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥١) وغيرهما.

فأولها: ما يعمد إليه بعض الناس من تسقط لأخبار الناس ومحاولة إذاعتها ونشرها من غير تثبت ولا تحفظ، ولا فرق بين ما ينبغي نشره وما لا ينبغي، يتكلمون في كل ما لا يعنيهم. ولا شغل لهم في المجالس إلا أن يقولوا: قال فلان، وقيل لفلان.

وأما الثاني: فهو كثرة السؤال والإلحاح فيه بغير ضرورة داعية. ولا شك أن كثرة السؤال من أي نوع كان مما يضايق المسؤول ويحمله علىٰ كراهية السائل.

وأما الأمر الثالث: فهو تبذير الأموال وإتلافها في غير مصلحة دينية أو دنيوية؛ مما يدل علىٰ روح التهاون والاستخفاف بما جعله الله قياماً لعباده، ما لو أنفق في وجوه الخير وإعداد القوة لعاد علىٰ الأمة بالخير العظيم.

فمتىٰ يلتفت المسلمون إلىٰ هذه المبادئ السامية؟ متىٰ يأخذون أنفسهم بها ليعود لهم ما فقدوه من سبق وغلب؟ والله المستعان.

١٣ الكلمة الطـيبة صدقة(*)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**كل سُلامىٰ من الناس عليه صدقة؛ كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل علىٰ دابته فتحمله عليها أو ترفع له متاعه عليها صدقة، والكلمة الطيبة صدقة،وبكل خطوة تمشيها إلىٰ الصلاة صدقة، وتميط الأذىٰ عن الطريق صدقة**)[1].

شرح مفردات الحديث

(**كل سلامىٰ من الناس عليه صدقة**): كل (بالرفع): مبتدأ، وسلامىٰ مضاف إليه، والخبر: عليه صدقة، والسلامىٰ (بضم السين وتخفيف اللام): هو العضو وجمعه: سالميات (بفتح الميم وتخفيف الياء)، وقيل: جمع ومفرده واحد.

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣١ – العدد: ٦ – جمادىٰ الآخرة ١٣٨٦هـ.

[1] رواه البخاري في صحيحه في الجهاد (٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (٥٦)، وأحمد (٢/٣١٦).

وقال ابن الأثير في (النهاية): (السلامىٰ: جمع سلامية هي الأنملة من أنامل الأصابع؛ وهي التي بين مفصلين من أصابع الإنسان؛ وقيل: كل عظم مجوف من صغار العظام).

وقال النووي في شرح (مسلم): (أصله عظام الأصابع وسائر الكف ثم استعمل في سائر عظام البدن ومفاصله).

وقوله (**من الناس**): في محل الصفة لسلامىٰ، والضمير في (**عليه**) عائد إلىٰ الجنس كما في قوله عليه السلام: (**خيرنساء ركبن الإبل وأحناه علىٰ زوج نساء قريش**)[1] ولهذا ورد بصيغة التذكير.

قال السهيلي في (**الروض**): الضمير فيه عائد إلىٰ الجنس أو الضمير العائد علىٰ السلامىٰ؛ وذكره باعتبار أنه عضو أو مفصل.

(**كل يوم تطلع فيه الشمس**): هذا ظرف مبين لتجديد وجوب هذه الصدقات علىٰ الإنسان صبيحة كل يوم في مقابل ما أنعم الله به عليه من خلق تلك السلاميات ودوامها، ولو شاء لسلبها عنه.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٣٤)، ومسلم في صحيحه (٤/٢٥٢٧). وأحمد ٢/٢٦٩.

وقد ورد أن الصدقة تدفع البلاء[١]، فبإخراجها عن أعضائه يرجىٰ اندفاع البلاء عنها، وظاهر قوله عليه السلام: (**عليه صدقة**) وجوب الشكر بهذه الصدقة كل يوم.

لكن جاء في رواية أخرىٰ: (**فإن لم يفعل فليمسك عن الشر فإن له به صدقة**)[٢]؛ وهو يدل علىٰ أنه يكفيه أن لا يفعل شيئًا من الشر في إسقاط هذا الوجوب.

(**تعدل بين الاثنين صدقة**): هذا بيان لبعض أنواع الصدقات التي يمكن أن يتصدق بها صبيحة كل يوم.

والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر؛ كأنه قيل: بأي شيء نتصدق؟ فقيل: تعدل... إلىٰ آخره.

<١> من ذلك حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: (باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطىٰ الصدقة).

رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٣٥٣) وإسناده ضعيف.

وحديث علي رضي الله عنه بنحوه. رواه الطبراني في الأوسط (٥٦٤٣). وإسناده ضعيف أيضًا. وانظر مجمع الزوائد (٣/ ١١٠).

<٢> رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة (١٠٠٨) من حديث أبي موسىٰ الأشعري، وليس من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهـو يـدل علىٰ أن الصدقة لا تكـون بمال فقـط بل تشـمل كل ما فـيـه نفـع للمـسـلمين أو دفـع أذىٰ عنهـم، كـمـا أنه لا يلزم أن تـكون متعدية إلىٰ الغير؛ فإن المشي إلىٰ الصلاة نفعه قاصر علىٰ صاحبه.

والمراد بالعدل بين الاثنين هو الفصل فيما شجر بينهما من نزاع مع تحري العدل في ذلك؛ فلا يحابي أحدهما لنسب أو قرابة أو صداقة، ويجتهد في إصلاح ذات بينهما، فيكون له ذلك صدقة حيث أزال ما بينهـما من إحن، ووقاهما مما يترتب علىٰ الهجر والخصام من قبيح الأقوال والأفعال.

(**وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها**): هذا هو الأمر الثاني: أن يعين الرجل في شأن دابته؛ فإن كان يريد الركوب عليها أمسكها له حتىٰ يركب، أو أعانه علىٰ النهوض فوقها، وإن كان يريد أن يحمل عليها متاعًا ساعده في رفعه، فهو عمل من أعمال المروءة التي يشكرها الله للعبد ويحسبها له صدقة.

والدابة في الأصل اسم لكل ما يدب علىٰ الأرض، ثم استعملها العرف في ذوات الأربع، وقد يراد بها خصوص الخيل.

(**والكلمة الطيبة صدقة**) : الطيب ضد الخبيث؛ وهو كل ما فيه نفع وصلاح مع خلوه من الشر والفساد، والمراد بالكلمة الطيبة مثل الذكر والدعاء لنفسه أو لغيره، وإفشاء السلام ورده، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ضرب الله المثل للكلمة الطيبة بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وفي الحديث : (**رحم الله امرءاً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم**)[١] .

(**وبكل خطوة تمشيها إلىٰ الصلاة صدقة**) : الخطوة بفتح (الخاء اسم المرة من الخطا، (والضم) لما بين القدمين.

ويلحق بالصلاة في ذلك ما في حكمها من طلب العلم، وصلة الأرحام، وزيارة الأخوان، وغير ذلك من القربات.

(**وتميط الأذىٰ عن الطريق صدقة**) : يقال : أماط الشيء عن الشيء بمعنىٰ أنه أزاله ونحاه؛ والأذىٰ كل ما يؤذي المارة من حجر وشوك ونحوها.

<١> البيهقي بنحوه في شعب الإيمان (٤٩٣٨) عن أنس، و(١٠٧٨٧) عن الحسن مرسلا. وهو في صحيح الجامع (٣٤٩٢)، والسلسلة الصحيحة (٨٥٣).

وإنما جعل إماطة الأذىٰ آخراً لأنها دون ما قبلها من الخصال في الأهمية كما يدل عليه الحديث الصحيح: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق؛ والحياء شعبة من الإيمان**)[١].

المعنىٰ الإجمالي للحديث

ينبه الرسول ﷺ في هذا الحديث إلىٰ جسيم نعم الله عز وجل علىٰ الإنسان حيث بنىٰ هيكله العظمي علىٰ تلك الصورة البديعة المتقنة، ونسق أعضاءه ومفاصله علىٰ هذا النحو العجيب الذي يمكنه من أداء الأعمال والحركات المختلفة، وكيف أنه سبحانه حفظ الأعضاء من التلف والفساد إلىٰ الأجل الذي قدره لها.

ويبين أن ذلك يقتضي من الإنسان المبادرة إلىٰ شكر الله عز وجل علىٰ كل سلامىٰ من هذه السلاميات، وأن ذلك الشكر الواجب متجدد عند بزوغ شمس كل يوم.

---

[١] البخاري في الإيمان (٩) بلفظ: (**بضع وستون**)، ومسلم في الإيمان (٥٨).

ثم يشير الرسول ﷺ إلىٰ بعض مظاهر هذا الشكر وصوره علىٰ وجه التمثيل لا التعيين؛ إذ هي لا تنحصر في الأمور التي وردت في الحديث، فمنها:

١- أن يسعىٰ في الصلح بين المتخاصمين وإزالة ما عساه أن يقع بينهم من عداوة وشحناء تجر عليهم كثيراً من المصائب والويلات وتدفعهم إلىٰ ارتكاب ما يحرمه الدين، ويأباه الخالق الكريم.

وفي الحديث الصحيح: (**ألا أنبئكم بأفضل من درجات الصلاة والصيام والصدقة؟** قالوا: بلىٰ: قال: **إصلاح ذات البين بين المسلمين، وفساد ذات البين هي الحالقة؛ لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**)[١].

وقد أباح الشرع لمن يحاول الإصلاح بين الناس أن يكذب إذا وجد أن ذلك قد يعينه في الوصول إلىٰ غرضه، فقد جاء في الحديث الصحيح: (**ليس بالكذاب الذي يصلح بين اثنين فيقول خيراً وينمي خيراً**)[٢].

<١> رواه أبوداود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في القيامة (٢٥٠٩). وهو في صحيح الجامع (٢٥٩٢).

<٢> رواه أبوداود في الأدب (٤٩٢٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٨).

وقد نوه القرآن العظيم بشأن الإصلاح بين المتنازعين وبين أن ذلك مما تقتضيه أخوة الإيمان؛ قال تعالىٰ: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾**﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وقال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾**﴾ [النساء: ١١٤].

٢- ومن ذلك - أيضًا - أن يعين بعض المسلمين بعضًا في كل ما يحتاج فيه إلىٰ معونة، وقد مثل النبي ﷺ لذلك بإعانته علىٰ ركوب الدابة أو حمل متاعه عليها.

ولا شك أن تقديم المعونة لمحتاج إليها من أفضل أعمال المروءة التي يهملها كثير من الناس؛ وفي الحديث الصحيح: (**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**)[1].

---

[1] رواه النسائي في الكبرىٰ (٧٢٨٧)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٧٤)، =

٣- ومن مظاهر شكر الله علىٰ نعمته - أيضًا - أن يحفظ الإنسان لسانه حتىٰ لا يصدر عنه إلا قول جميل؛ فلا يستعمله إلا في ذكر الله عز وجل، وإسداء النصح لكل مسلم، وفي مدارسة العلم ونشره.

وليحذر كل الحذر من أن يطلق للسانه العنان، فإنه مصدر لكثير من الموبقات كالكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والفحش والبذاء وغير ذلك من عظائم الذنوب.

وقد جاء في حديث معاذ - المشهور - أن النبي ﷺ قال له: (**ألا أدلك علىٰ ملاك الأمر كله؟**. قال: بلىٰ، قال: **كف عليك هذا**؛ وأخذ بطرف لسانه، فقال معاذ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله؟ قال: **ثكلتك أمك؛ وهل يكب الناس في النار علىٰ مناخرهم**- أو قال: **علىٰ وجوههم - إلا حصائد ألسنتهم**)[1].

= وعبد الرزاق في مصنفه (١٨٩٣٣)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٧).

[1] رواه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٣٩٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٣١).

وفي الحديث الصحيح الآخر: (**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء تُكفِّر اللسان تقول له: اتق الله ؛ فإنما نحن بك ؛ فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا**)[١].

وقد سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؛ فقال: (**الأجوفان: الفم والفرج**)[٢].

٤- ومنها - كذلك - الخطا إلىٰ المساجد لأداء فريضة الله عز وجل.

وفي الحديث الصحيح: (**ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟** قالوا: بلىٰ: قال: **إسباغ الوضوء علىٰ المكاره ، وكثرة الخطا إلىٰ المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط**)[٣].

<١> رواه الترمذي في سننه (٢٤٠٧)، وأحمد (٣/ ٩٦)، والبيهقي في الشعب (٤٩٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٩).

<٢> رواه الترمذي في البر (٢٠٠٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٦)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٩١).

<٣> رواه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة (٢٥١).

وفي الحديث الآخر: (**بشر المشائين إلىٰ المساجد في الظلمات بالنور التام يوم القيامة**)[١].

وقد ورد أن بني سلمة كانت بيوتهم بعيدة عن المسجد فأرادوا أن يبيعوها ويستبدلوا بها بيوتًا قريبة من المسجد؛ فقال لهم: النبي ﷺ (**ألا تحتسبون آثاركم؟**)[٢].

ومنها - كذلك - إزالة كل ما يضر المارة ويؤذيهم من حجارة أو شوك أو قشر موز أو نحوه؛ فهو صدقة لمن يفعله. فحبذا لو تدبر المسلمون هذه المعاني الكريمة التي تضمنها هذا الحديث وأخذوا بها أنفسهم.

إذًا لرأينا مجتمعًا سليمًا متكافلاً لا قرار فيه لأنانية، ولا موضع لفرقة أو بغضاء، والله الموفق.

❁ ❁ ❁

<١> رواه أبو داود في الصلاة (٥٦١)، والترمذي في الصلاة (٢٢٣) من حديث بريدة، وابن ماجه بنحوه (٧٨١) من حديث أنس، و(٧٨٠) عن سهل بن سعد. وهو في صحيح الجامع (٢٨٢٣).

<٢> رواه مسلم في كتاب المساجد (٦٦٥) بمعناه من حديث جابر رضي الله عنه.

١٤ مثل القائم علىٰ حدود اللَّه (★)

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (**مثل القائم علىٰ حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا علىٰ سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا علىٰ من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا؛ وإن أخذوا علىٰ أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**)[1].

شرح المفردات

(**مثل القائم علىٰ حدود الله والواقع فيها**): المثل (بفتح أوله وثانيه) هو الحال والصفة العجيبة؛ وقد كثر ضرب الأمثال في القرآن الكريم

(★) الهدي النبوي – المجلد: ٣١ – العدد: ٧ – رجب ١٣٨٦هـ.

[1] رواه البخاري في كتاب الشهادات/ باب (٣٠) القرعة في المشكلات [٥/ ٣٤٥ (٢٦٨٦) فتح]، وفي كتاب الشركة/ باب (٦) هل يقرع في القسمة [٥/ ١٥٧ (٢٤٩٣) فتح].

وفي السنة المطهرة لما لها من أثر بالغ في إبراز خفيات المعاني وتقريبها للأذهان، وذلك لتصويرها بصورة الشيء الملموس المحسوس.

والقائم علىٰ حدود الله: من وسد إليه أمرها وجعل له الولاية عليها، والقيام بحفظها ورعايتها من الولاة والقضاة؛ يعينهم في ذلك من المسترشدين والدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

الحدود: جمع حد، وهو في اللغة: الحاجز بين الشيئين ونهاية الشيء أيضًا؛ تقول: حد الدار يحدها حدًا وحددها. ويطلق الحد كذلك علىٰ المنع؛ ومنه: أخذت المرأة تحد فهي محدة إذا امتنعت عن الزينة بعد وفاة زوجها.

والمراد بحدود الله هنا: كل ما حدَّه الله لعباده ونهاهم عن تعديه وتجاوزه من أحكام الشريعة الغراء. ومناسبة هذا المعنىٰ للغة أن هذه الأحكام فيها المنع من الشر والفساد.

وأما الواقع فيها فهو المنتهك لتلك الحدود والخارج عليها من الدعار والفساق.

(**استهموا علىٰ سفينة**): السهم: الواحد من النبل، وقيل: نفس النصل، ويطلق علىٰ النصيب؛ ومنه: السهم في الغنيمة وفي الميراث.

وتجمع علىٰ أسهم وسهام وسهمان، وساهم غيره: قارعهُ فقرعه في المساهمة والمقارعة، والمغلوب يقال له مسهوم ومقروع.

(**فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها**): الأعلىٰ ضد الأسفل. والعلو: (بضم العين وكسرها مع سكون اللام) يقابله (بضم السين وكسرها). والعلو (بتشديد الواو) يقابله السفول والسفال (بفتح السين) والسفالة (بضمها) يقابلها العلاء والعلاوة، وعلية الناس (بكسر العين وسكون اللام) ضد سفلتهم، والسفالة (بفتح السين) النذالة، وبابه ظرف.

ومعنىٰ أصاب بعضهم إلخ: وقع نصيبه الذي خرج له بالقرعة.

(**وإن أخذوا علىٰ أيديهم**): يقال: أخذ علىٰ يديه أو ضرب علىٰ يديه: كفه ومنعه من فعل ما عزم عليه.

والمعنىٰ: حالوا بينهم وبين ما يريدون من خرق السفينة.

المعنىٰ الإجمالي للحديث

إذا كان الإسلام من الناحية الإيجابية قد وضع من القواعد والنظم والشرائع والآداب ما يكفل قيام أرقىٰ المجتمعات وأوفرها عدالة وطمأنينة، وأشدها تمسكًا وتضامنًا، وأكثرها رحمة، وأبعدها عن

عوامل القلق ومظاهر الفساد والتحلل، فإنه من الناحية الأخرىٰ يوصي بصيانة هذا المجتمع وبقائه سليمًا، ويحذر من التهاون في دفع ما قد يطرأ عليه من الخرافات التي لا تلبث إن أهملت أن تتسع ويستطير شررها، فتهدد بناء المجتمع كله، ويصبح علاجها من أعسر الأشياء.

وفي هذا الحديث - البالغ حد الروعة والداني[١] من مرتبة الإعجاز - يرشدنا النبي ﷺ إلىٰ وحدة الأمة وتضامنها، ومسؤولية بعضها تجاه بعض، وأنها كالجسم الواحد إذا أصاب أي عضو منه فساد فإنه لايلبث أن يسري إلىٰ الجسم كله.

ويبين الحديث كذلك مسؤولية الطبقة العليا من العلماء والولاة والحكام نحو من دونهم من العامة والدهماء، وأن الواجب عليهم أن يحسنوا قيادهم وتوجيههم، وأن يأخذوهم بآداب الشريعة وأحكامها.

فيأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ولا يسمحوا للفاحشة أن تشيع فيهم، ولا للفساد أن يستشري بينهم.

فإن فعلوا ذلك، وكفوا هؤلاء عن العبث في الأرض بالفساد، ومنعوهم من السير في سبيل الغواية والضلال أنجوا أنفسهم، بل وأنجوا

<١> الداني: القريب.

هؤلاء الذين نصحوا لهم، وفي ذلك نجاة الأمة كلها من خطر التدهور والضلال.

وكانوا بذلك قد قاموا بالواجب عليهم من الدعوة إلىٰ الخير، ونصرة الفضيلة، وشد أزر الدين. وكان مثلهم في ذلك مثل من في أعلىٰ السفينة إذا أخذوا علىٰ أيدي من في أسفلها، وقد هموا أن يخرقوا فيها خرقًا ليصيبوا الماء من أقرب طريق دون أن يؤذوا غيرهم – في زعمهم – وهم لا يدركون ما يترتب علىٰ هذا الخرق من هلاك من في السفينة جميعًا.

وأما إذا لم يقم الراشدون بما افترض الله عليهم من المحافظة علىٰ حدوده، وألقوا حبل العابثين علىٰ غاربهم، وتركوهم ينغمسون في حمأة الرذيلة، ويخوضون في الباطل خوضًا، فإنهم بذلك يعرضون أمتهم لخطر ماحق؛ حيث يستشري الفساد، وتمتد موجة التحلل حتىٰ تعم المجتمع كله، فتتفكك الروابط، وتنتشر الأخلاق الانهزامية من الأثرة والجشع والغدر والخيانة والتهرب من المسؤولية، ومحاولة تبرير الخطأ، وإلقاء التبعة علىٰ الغير، وتشيع – كذلك – ظاهرة النفاق والمداهنة والتملق والرياء إلىٰ غير ذلك مما يؤذن بفناء المجتمع وانهياره.

وصدق الشاعر حيث يقول:

وإنما الأمـــم الأخـــلاق ما بقـيت

فإن همـو ذهبـت أخـلاقهم ذهبوا

وحينئذ لا ينفع ولا يغني التلوم فقد فات الوقت وضاعت الفرصة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال: ٢٥].

وصدق نبيه الكريم حيث يقول: (**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعذاب**)[١].

وقد تضمن هذا الحديث الكريم ثلاثة تشبيهات:

فقد شبهت فيه أحكام الشريعة الغراء في حفظها لسلامة المجتمع وكفالتها لأمنه وطمأنينته بالسفينة التي تمخر عباب اليم، وتقطع براكبيها أجواز البحار في أمن ودعة وسلامة من المخاطر؛ متىٰ سددوا

<١> رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وأحمد (١/٢، ٥، ٩). وهو في صحيح الجامع (١٩٧٠).

قيادها، وأحسنوا تصريفها.

فكذلك الشريعة السمحة: يخوض القائمون علىٰ حدودها معترك الحياة، ويجتازون مضايقها، وهم في أمن من الأخطار، ومنجاة من الزلق والعثار.

وفي الحديث - أيضًا - تشبيه القائمين علىٰ حدود الله - وهم الذين يحلون الحلال ويحرمون الحرام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتولون قيادة الأمة وتوجيهها - بمن يركبون أعلىٰ السفينة، وفي ذلك إشارة إلىٰ علو مراتبهم، وعظيم مكانتهم كما أن الراكبين في أعلىٰ السفينة لهم العلو الحسي والمكان الرفيع.

كما أن فيه تشبيه الواقعين في الحدود والمنتهكين لها من أصابوا أسفل السفينة، إشارة إلى انحطاط مراتبهم.

والحديث بعد ذلك من قبيل تشبيه التمثيل الذي يراد فيه تشبيه هيئة بهيئة؛ ففيه تشبيه الأمة كلها، وما يكون من بعض أفرادها من حفاظ علىٰ أحكام الشريعة وحدودها، وما يكون من البعض الآخر من انتهاك لتلك الحدود والأحكام، وما يترتب علىٰ ردع هؤلاء المجرمين والضرب علىٰ أيديهم من النجاة لجميع الأمة، أو علىٰ

إهمالهم والسكوت عنهم من الهلاك لسائرها، بجماعة ركبوا سفينة إلىٰ آخره.

وبعد، فهل لمست أيها القارئ الكريم ما في هذا الحديث من جلال وروعة؟

وهل أحسست إشراق النبوة تألق في كل عبارة منه؟ بل في كل لفظة؟

وهل أدركت سمو تلك الوصاة الحكيمة التي يوصي بها رسول الله ﷺ القائمين علىٰ أمر تلك الأمة بعده حتىٰ تظل كما كانت شامخة البناء وطيدة الأركان؟

١٥ تحـويل القـبلة(*)

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يوجه إلىٰ الكعبة؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**﴾ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾؛ فصلىٰ مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعد ما صلىٰ، فمر علىٰ قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلىٰ مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرف القوم حتىٰ توجهوا نحو الكعبة)[1].

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣١ – العدد: ٨ – شعبان ١٣٨٦هـ.

[1] متفق عليه: رواه البخاري في كتاب التفسير (٤٤٩٢)، ومسلم في كتاب المساجد (٥٢٥).

شرح الحديث

اقتضت حكمة الله عز وجل أن يبعث علىٰ الناس في عهد النبوة بين الفينة والفينة ريح فتنة يبتلي بها ما في النفوس ليظهر الصادق في إيمانه الذي لا تزلزله الفتن ولا تنال منه الزعازع، من المنافق الذي لا يلبث أن يتكشف ما في نفسه من ظلمات الشكوك وعوامل الهزيمة، فيذوب في الفتنة كما يذوب الملح في الماء.

ولقد كان حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أحد هذه الابتلاءات الكبرىٰ التي أراد الله بها هز المجتمع الإسلامي لتتساقط عن شجرته المباركة الأوراق اليابسة والثمرات العفنة، ولا يبقىٰ إلا القوي الجيد الذي له من صلابة الإيمان وقوة اليقين ونور البصيرة ما يرد عنه مضلات الفتن وينجيه من بوائقها.

كان ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة يصلي مستقبلاً الكعبة بيت الله الحرام.

وقيل: إنه مع ذلك يستقبل صخرة بيت المقدس؛ فكان يصلي بين الركنين اليمانيين؛ لتقع صلاته إلىٰ القبلتين معًا.

فلما هاجر إلىٰ المدينة تعذر عليه ذلك، فأمره الله عز وجل أن يستقبل صخرة بيت المقدس تألفًا لليهود من سكان المدينة؛ لعلهم إذا رأوه يصلي إلىٰ قبلتهم حملهم ذلك على الإنصاف والإذعان للحق وترك ما هم عليه من الجحد والمكابرة، فصلىٰ إلىٰ بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا.

وذلك لأنه ﷺ هاجر إلىٰ المدينة في شهر ربيع الأول؛ ووقع تحويل القبلة في شعبان من السنة الثانية للهجرة؛ فتكون المدة التي قضاها في التوجه إلىٰ بيت المقدس هي سنة وأربعة أشهر أو خمسة.

روىٰ ابن أبي طلحة الوابلي عن ابن عباس رضي الله عنه في سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١١٥] أن رسول ﷺ لما هاجر إلىٰ المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها بضعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام: (**وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلىٰ غيرها**)[1].

<1> عزاه السيوطي في الدر المنثور (١ / ١٤٢) لأبي داود في ناسخه.

أما حديث ابن عباس: فقد رواه أحمد في مسنده (١ / ٢٥٠، ٣٢٥، ٣٥٠).

وكان يريد الكعبة لأنها قبة إبراهيم، فقال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك لا أملك لك شيئًا، فسل ربك أن يحولك عنها إلىٰ قبلة إبراهيم عليه السلام، ثم ارتفع جبريل؛ وجعل رسول الله ﷺ يدير النظر في السماء رجاء أن يأتيه جبريل بما سأله؛ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

ولما كان شأن ذلك التحويل عظيمًا حيث اتخذ منه أعداء الإسلام فرصة للطعن وإثارة الشكوك كقولهم: إن كانت القبلة الأولىٰ حقًا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان علىٰ باطل.

وكقولهم: إن محمدًا مضطرب في أمره، ينقض اليوم ما أبرم بالأمس، يصلي كل يوم إلىٰ قبلة.

إلىٰ غير ذلك من العبارات التي كانوا يريدون بها بلبلة الأفكار والتأثير بها في ضعفاء الإيمان من المسلمين، وقد بلغوا من ذلك بعض ما أرادوا؛ فارتد ناس من ضعفة الإيمان عن دينهم.

أقول: لما كان شأن ذلك التحويل عظيمًا وطأ الله – عز وجل – قبله بآيات كثيرة، وأنزل في شأن التحويل طائفة كبيرة من الآيات من سورة البقرة؛ تثبيتًا لقلوب المؤمنين، وردًا علىٰ المطاعن والمفتريات التي كان يشغب بها أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين.

فالآيات من قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ إلىٰ قوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢] كلها في شأن تحويل القبلة.

فذكر - سبحانه - أولا أمر النسخ الذي كانت تنكره اليهود، وبين قدرته عليه؛ وأنه مهما ينسخ من آية يأت بخير من المنسوخ أو مثله، ثم أعقب ذلك بالمعاتبة لمن يتعنت علىٰ رسول الله ﷺ ولا ينقاد لأمره وحكمه.

ثم أخبر عن تمني أهل الكتاب أن يردوا المؤمنين كفاراً - مثلهم - من بعد ما تبين لهم الحق، وأمرهم بالعفو عنهم حتى يأتي الله بأمره فيهم.

ثم ذكر اختلاف اليهود النصارى، وشهادة بعضهم علىٰ بعض بأنهم ليسوا علىٰ شيء وهم يتلون الكتاب. ثم ذكر شركهم بنسبتهم الولد إلىٰ الله.

ثم أخبر أن المشرق والمغرب لله فأينما ولّىٰ عباده وجهوهم فثم وجه الله.

ثم أخبر رسوله بأن أهل الكتاب لا يرضون عنه حتى يتبع ملتهم ويصلي إلىٰ قبلتهم، وحذره من اتباع أهوائهم.

ثم ذكر خليله إبراهيم باني البيت الحرام، وكيف أنه جعله للناس إماماً وقدوة في الدين لما وفىٰ بكلمات الله.

ثم نوه بشأن البيت وأنه جعله مثابة للناس وأمنا، وأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلىٰ.

ثم ذكر ما قام به إبراهيم من رفع قواعد البيت الحرام بمعونة ولده إسماعيل عليهما السلام ودعائهم بعد الفراغ من ذلك بأن يتقبل الله عملهما، وأن يجعل ذريتهم أمة مسلمة له، وأن يريهما مناسكهما ويتوب عليهما وأن يبعث - في هذه الأمة المسلمة - رسولاً منهم يتلوا عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

ثم أخبر أن ملة إبراهيم - وهي الإسلام الذي يقوم علىٰ التوحيد الخالص من كل شائبة - لا يرغب عنها إلا كل سفيه أحمق، وأن إبراهيم وصىٰ بها بنيه، وكذلك يعقوب - عليهما السلام - وبين أنها الدين الحق، وليست اليهودية أو النصرانية كما تزعم اليهود والنصارىٰ.

ثم أمر عباده المؤمنين أن يتمسكوا بها وأن يقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وبين أن تلك هي صبغة الله التي لا صبغة أحسن منها، وأن اليهود والنصارىٰ لم يكونوا مهتدين حتىٰ يؤمنوا بها.

ثم أخبر عن مقالة السفهاء في القبلة وقولهم: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

ورد عليهم بأن المشرق والمغرب له وحده؛ فهو الذي يأمر بالتوجه إلىٰ أي جهة شاء، وأنه يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

ثم نوه بشأن هذه الأمة وأنها الأمة الوسط المزكاة بالعلم والعمل، وأنها من أجل ذلك تكون شهيدة علىٰ سائر الأمم ويكون الرسول شهيداً عليها.

ثم ذكر الحكمة في تحويل القبلة، وأنه أراد بها الابتلاء والامتحان ليتميز الصادق من الكاذب، ويظهر من يتبع الرسول عن طاعة وإذعان ممن يتمرد عليه فينقلب إلىٰ الكفر بعد الإيمان.

ثم أخبر عن تمني نبيه ﷺ أن تكون قبلته الكعبة وتقليبه وجهه في السماء ينتظر الأمر له بذلك، ثم أمره أن يصرف وجهه إلىٰ الكعبة، وأمر الأمة جميعًا بمثل ما أمره به؛ وبين أن هذا هو الحق الذي يعلمه أهل الكتاب ولكنهم يتكتمونه.

ثم كرر الأمر بتلك التولية مرة بعد مرة إزالة لكل تردد.

ثم أخبر أنه فعل ذلك لئلا يكون لأحد من الناس عليهم حجة، وأنهم ما تحولوا إلا بأمر الله عز وجل، ثم ذكرهم بنعمته عليهم في إرسال الرسول الخاتم وإنزال الكتاب، وأمره من أجل ذلك بذكره وشكره؛ ورغبهم في ذلك بأنه يذكر من ذكره، ويشكر من شكره.

ثم أمرهم بما لا يتم كل ذلك إلا به وهو الاستعانة بالصبر والصلاة وأخبرهم أنه مع الصابرين.

ولنرجع إلىٰ شرح بقية الحديث من قول البراء رضي الله عنه: (فصلىٰ مع النبي ﷺ رجل) ولم يعرف اسم ذلك الرجل، ولا القوم الذين مر بهم وهم يصلون في مسجدهم، ولكنهم - علىٰ كل حال - ليسوا أهل قباء؛ فإن أهل قباء لم يعلموا بتحويل القبلة إلا في صلاة الصبح، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: (بينما الناس بقباء في

صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الناس الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلىٰ الشام فاستداروا إلىٰ الكعبة)[1].

وقد اختلف في أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلىٰ الكعبة بعد التحويل: فحديث البراء يفيد - هنا - أنها العصر.

وروي عن أبي سعيد بن المعلىٰ أنها الظهر؛ وأنه هو وصاحب له كانا أول من صلىٰ مع النبي ﷺ إلىٰ القبلة الجديدة.

وروي - كذلك - أن الأمر بالتحويل نزل بعد ما صلىٰ النبي ﷺ ركعتين من الظهر فاستدار في الصلاة وكان ذلك في مسجد بني سلمة، فسمي المسجد ذا القبلتين.

ويؤخذ من هذا الحديث جملة من الأحكام الأصلية والفرعية، ذكرها العلامة ابن دقيق العيد في شرحه علىٰ (عمدة الأحكام)؛ عند الكلام علىٰ حديث ابن عمر المتقدم، ونحن نجملها فيما يأتي:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة (٤٠٣)، ومسلم في كتاب المساجد (٥٢٦).

١- قبول خبر الواحد، وعادة الصحابة في ذلك اعتداد بعضهم بنقل بعض، وورد عنهم في ذلك ما لا يحصىٰ.

ومعنىٰ ذلك: أن خبر الواحد العدل يفيد العلم بمضمونه، ويجب العمل به خلافًا للمتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

٢- استدل الظاهرية بهذا الحديث علىٰ جواز نسخ الكتاب والسنة المتواترة بخبر الواحد؛ لأن القوم عملوا به، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ.

٣- جواز نسخ السنة بالكتاب؛ فإن الصلاة إلىٰ بيت المقدس إنما كانت بالسنة؛ إذ لا نص في القرآن علىٰ ذلك، وتحويل القبلة إلىٰ الكعبة إنما كان بالكتاب، والمنقول عن الشافعي - رحمه الله - خلاف ذلك.

٤- دل الحديث علىٰ أن: حكم الناسخ لا يثبت في حق المكلف قبل بلوغ الخطاب له، فإنهم بنوا علىٰ ما فعلوه من الصلاة جهة بيت المقدس، ولو ثبت الحكم في حقهم قبل بلوغ الخبر إليهم لكانت صلاتهم إلىٰ بيت المقدس باطلة فلا يجوز البناء عليها بل كان يجب استئنافها.

٥- قد يؤخذ منه - أيضًا - جواز الاجتهاد في زمن الرسول ﷺ أو بالقرب منه؛ لأنه كان يمكنهم أن يقطعوا الصلاة ويستأنفوها، أو أن يبنوا علىٰ ما صلوا؛ فرجحوا البناء.

٦- وفي الحديث - أيضًا - دليل علىٰ جواز مطلق النسخ؛ لأن ما دل علىٰ جواز الخاص دل علىٰ جواز الأعم.

٧- فيه دليل علىٰ جواز تنبيه من ليس في الصلاة لمن هو فيها؛ وأن يفتح عليه القراءة.

٨- قال الطحاوي: في هذا دليل علىٰ أن من لم يعلم بفرض الله - تعالىٰ - ولم تبلغه الدعوة، ولا أمكنه استعلام ذلك من غيره؛ فالفرض غير لازم له، والحجة غير قائمة عليه؛ فمن أسلم في دار الحرب أو أطراف بلاد الإسلام بحيث لا يجد من يستعلمه عن شرائع الإسلام لا يجب عليه قضاء ما مر به من صلاة وصيام لم يعلم وجوبهما، والله تعالىٰ أعلم.

١٦ المؤمـــن القـــوي (*)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان**)[1].

شرح المفردات

(**المؤمن القوي**): المراد به القائم بما يوجبه الإيمان الصحيح من السعي في الخير والنهوض بجلائل الأعمال في غير تخاذل ولا تردد.

(**خير وأحب إلىٰ الله**): خير هنا (أفعل تفضيل) بمعنىٰ: أخير (بسكون الخاء وفتح الياء) والمراد به أنه أكثر نفعًا وأقدر علىٰ تحقيق الخير ودفع الشر.

(*) الهدي النبوي – المجلد: ٣١ – العدد: ٩ – رمضان ١٣٨٦هـ.

[1] رواه مسلم في كتاب القدر (٣٤).

وقوله: (**وأحب إلىٰ الله**) بالعطف علىٰ خير، وهو أيضًا (أفعل تفضيل) من اسم المفعول بمعنىٰ أشد محبوبية.

والمراد: أنه أقرب إلىٰ الله – عز وجل – بسبب قوة إيمانه وإيجابيته؛ فإن كان حب الله له أكثر، كان قربه من الله أشد وثوابه أعظم.

(**من المؤمن الضعيف**): المراد به: الذي وهن عزمه وضعفت إرادته؛ فهو لا يقدر علىٰ القيام بما يوجبه الإيمان من نصرة الحق ودفع الباطل والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ بأسباب الحياة الجادة في غير تخاذل ولا استكانة.

(**احرص علىٰ ما ينفعك**): هذا بيان لما يجب أن يكون عليه المؤمن القوي من الحرص علىٰ كل نافع مفيد، فيأخذ في تحصيل أسبابه، ويوفر جميع الوسائل المؤدية إليه.

(**واستعن بالله ولا تعجز**): يعني اطلب العون من الله وأنت بسبيل التحصيل والطلب معتقداً أنه لا يتم لك مقصودك إلا بتيسير الله ومعونته.

فإن من يعينه الله عز وجل يجد الأسباب مواتية، قد ذلل منها كل صعب، وقرب كل بعيد؛ ومن تخلىٰ الله عنه لا يمكن أن يتم له نجاح أو

يتحقق له ظفر ؛ كما قال الشاعر:

إذا كان عـون الله للمـرء مسـعفًا

تهـــيا له في كل أمـــر مـــراده

وإن لم يكـن عـون من الله للفتىٰ

فأول ما يجـني عليـه اجتهـــاده

ومعنىٰ: (لا تعجز): لا تتخذ العجز مطية فتقعد عن النهوض بالأعمال الخطيرة حبًا للسلامة وإيثارًا للدعة والراحة.

(**وإن أصابك شيء ... إلىٰ آخره**): يعني إذا لحقك أثناء سعيك فشل، ولم تصب نجاحًا؛ فلا تندم علىٰ ذلك، ولا تعتقد بلو، بل يجب أن تعتقد أنه قدر الله ومشيئته، فإن لو من شأنها أن تعين عليك الشيطان وأن تفتح الباب لهواجسه ووساوسه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث

يتفاوت الناس في إيمانهم قوة وضعفًا كما يتفاوتون في أجسامهم وسائر صفاتهم وشؤونهم، والمقارنة هنا في الحديث الشريف بين المؤمن

القوي والمؤمن الضعيف، فيها أن الأول خير وأحب إلىٰ الله من الثاني. ومرد ذلك إلىٰ أن قوة الإيمان تدفع صاحبها إلىٰ خوض غمار الحياة في قوة وثقة ، وتحمله علىٰ الصبر، والاستبسال في ميادين الجهاد.

فهو دائب السعي فيما يعود علىٰ نفسه وأمته بالخير، ولا يتطرق إليه الوهن ولا يستولي عليه اليأس؛ يجابه الخطوب مهما جلت، ويركب الأهوال وإن عظمت، وقد اتخذ من إيمانه مجنا منيعًا ودرعاً حصينة، ترد عنه عوامل الهزيمة والاستسلام واليأس والقنوط.

ولا ينبغي أن يتبادر إلىٰ الوهم أن المفاضلة بين قوي الجسم وضعيفه من المؤمنين؛ فإن تلك الموازنة خاطئة، وإن راقت للناظر في بادئ الرأي.

فكم من فتىٰ قوي الجسم، شديد الأسر، ضخم الجثة، وهو كالصنم الأجوف تطير نفسه شعاعًا من أقل صيحة.

وكأين من ضعيف في جسمه، نحيف في بدنه يقوم في الأمة مقام الجيش اللجب، ويغني غناء الألوف من الرجال.

ولما كان ترجيح المؤمن القوي علىٰ المؤمن الضعيف قد يدخل في الروع أن المؤمن الضعيف الإيمان لا خير فيه أصلاً ولا جدوىٰ

منه، استـدرك النبي ﷺ ذلك بقـوله: (**وفي كل خير**) فأفاد: أن كلا من الصـنفين من المؤمـنين فـيـه خـيـر، وإن كـانـت الدرجـات جـد متباعـدة.

ثم أشار الرسول ﷺ إلىٰ عوامل تقوية الإيمان ليتمثلها الراغبون في الترقي إلىٰ الدرجات العلىٰ في سلم الإيمان؛ فقال: (**احرص علىٰ ما ينفعك .... إلىٰ آخره**).

وتلخيص هذه العوامل فيما يأتي:

١- الحرص علىٰ المنافع.

٢- الاستعانة بالله عز وجل.

٣- ترك الاستكانة والاستسلام للخطوب.

٤- ترك الندم والتعلل بما لا يفيد.

١- فأما الحرص علىٰ المنافع: فآية العقول وأمارة الحزم، ويتجلىٰ أثره في الاستباق إلىٰ الخير وتلبية داعي الحق والوطن والدين، والمنافسة في أعمال البر، والعمل علىٰ ما فيه رقي الفرد والجماعة في الدين والدنيا.

ولكن ينبغي أن يكون حرصًا قائمًا علىٰ العقل، لا يطلب إلا ما ثبتت منفعته، وتأكدت فائدته، ولا يجري وراء سراب خادع وأماني كاذبة.

كما ينبغي أن يأتي كل مطلب من بابه، وأن يوفر له جميع أسبابه، وأن يذلل العقبات التي تعترض طريقه، وأن يتوقىٰ أسباب الفشل التي تعوقه في سيره حتىٰ يتم له ما أراد.

٢- أما الاستعانة بالله: فهي آية الإيمان الصادق، وديدن المثقف الرشيد البصير بحقائق الأمور، وهو يستخير الله في جميع شؤونه ويستلهمه الرشد والتوفيق فيما يضطلع به من جسام الأمور وفوادح الأعباء؛ لأنه يعلم أن مصائر الأمور كلها بيد الله وحده، فلا يتم شيء منها إلا بإذنه وتيسيره، ولا يدرك مطلب إلا بمعونته وتوفيقه.

٣- وأما ترك الاستسلام للخطوب: فهو يثمر الصبر، ويفتق الحيلة، ويوسع آفاق الفكر، ويشحذ العزيمة، ويحفظ توازن النفس، ويعبر بالإنسان في طريق الأمل والنجاة، ويباعد بينه وبين الارتطام بصخرة اليأس والقنوط.

فالذي يصمد في وجه الخطوب، ويقابلها برباطة جأش، وقوة نفس حتىٰ تتجلىٰ غاشيتها وتهدأ سورتها (بفتح السين وسكون الواو وفتح الراء) ويخرج منها كالمعدن النفيس: فُتن علىٰ النار حتىٰ صفّت (بفتح الصاد والفاء) جوهره، وأزالت أوضاره.

وأما من يستسلم لها وينهار عند وقوعها، فإنها تشل عقله عن التفكير في المخرج منها، وتعطل إرادته عن العمل في مقاومتها حتىٰ يصير كأنه شبح لا روح فيه.

٤- أما ترك الندم علىٰ ما فات وعدم التعلل بالأماني: فهو كالثمرة لما قبله.

فإن من حرص علىٰ ما ينفعه، واستعان بالله في أموره، لا يمكن أن يقف أمام الكوارث جامداً متبلداً، ولا أن يلتفت إلىٰ الوراء باكيًا نادمًا يقول: لو كنت أتيت بكذا أو لو كنت تركت كذا لما وقع الذي وقع، ولكنه سرعان ما يرد الأمر إلىٰ الله - عز وجل - ويقول: قدر الله ما شاء فعل؛ فينزل هذا القول علىٰ نفسه برداً وسلامًا، ويكون لها عزاء وسلوىٰ عما أصيبت به، فتجدد عزمها علىٰ استئناف العمل ومواصلة السير؛ لا تذكر من ماضيها إلا ما

ينفعها في حاضرها فتتجنب الأخطاء وتتدارك وجوه النقص حتىٰ تصل إلىٰ بغيتها.

وقد بين الرسول ﷺ سر النهي عن المسك بخيوط (لو) الواهنة بقوله: (**فإن لو تفتح عمل الشيطان**)[١]؛ وذلك بالاستنامة إلىٰ الكسل والرضىٰ بالجمود، واليأس من روح الله، والسخط علىٰ قضائه؛ وتلك خطوات الشيطان ينفذ منها إلىٰ النفوس الواهنة والعزائم الفاترة، فيصيبها في إيمانها وإرادتها.

وخير من (لو) في هذه الحالة أن يتعزىٰ الإنسان بقدر الله وأن يعلم: (**أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**)[٢]، وأن يذكر قول الله عز وجل: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾**﴾ [الحديد: ٢٢].

---

(١) جزء من حديث الباب.

(٢) جزء من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – المشهور: (**يا غلام... احفظ الله يحفظك**). رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٧).

١٧ الهـــدىٰ والعـــلم (*)

قال رسول الله ﷺ : (**مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به**)<1>.

(*) الهدي النبوي – المجلد : ٣١ – العدد: ١٠ – شوال ١٣٨٦هـ.

<1> متفق عليه: رواه البخاري في كتاب العلم/باب (٢٠) فضل من علم وعلم [١/ ٢١١ (٧٩) فتح]، ومسلم في كتاب الفضائل/ باب (٥) بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدىٰ والعلم ٤/ ١٧٨٧ (٢٢٨٢).

شرح مفردات الحديث

(**مثل**): المثل (بفتحتين) معناه: الحال والصفة العجيبة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿**مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**﴾ [الرعد: ٣٥].

وكقوله عليه السلام: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد**)[١].

فالمراد: أن صفتهم كصفته.

وأما المثل (بكسر فسكون) وكذا (المثل): فهو الشبيه والنظير؛ كما تقول: الولد مثل أبيه، تعني أنه مشابه له.

(**ما بعثني الله به**): مادة «بعث» تدور حول الإثارة والتحريك، ومنه: بعث النائم؛ إذا أيقظه، وبعث الجيش وسيره، وبعث الله الموتىٰ: أخرجهم من قبورهم أحياء.

(**من الهدىٰ**): من للبيان، والهدىٰ: يأتي لعدة معان:

---

[١] رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠١١)، ومسلم في كتاب البر والصلة (٦٦).

فهو يطلق علىٰ الإلهام الغريزي الذي يهدي به الله كل مخلوق إلىٰ ما قدر له، وإليه إشارة بقوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣**﴾ [الأعلىٰ: ٢، ٣].

وقوله علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام يخاطب فرعون: ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠**﴾ [طه: ٥٠].

ويطلق بمعنىٰ الدلالة الموصلة والبيان والإرشاد، وهو أكثر استعماله؛ يقول: هداه الطريق: أرشده؛ ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ**﴾ [فصلت: ١٧]، وقوله في سورة الدهر: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣**﴾ [الإنسان: ٣].

والمراد بالهدىٰ في الحديث: الدليل الموصل إلىٰ الحق وهو القرآن.

(**والعلم**): كلمة العلم قد تستعمل في مطلق الإدراك؛ سواء تعلق بمفرد وهو التصور، أو تعلق بخبر وهو التصديق، وقد يخصها البعض بالاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن الدليل.

والمراد بالعلم هنا متعلقه وهو المعلوم الذي شمل جميع الأحكام الشرعية؛ سواء كانت أصولاً اعتقادية أو فروعًا عملية مأخوذة من أدلتها التفصيلية.

(**كمثل الغيث الكثير**): الغيث المطر؛ وسمي بذلك لأنه يغيث الناس إذا أجدبوا؛ كما في قول الصديق يوسف عليه السلام: ﴿**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٩].

وربما استعمل الغيث في النبات؛ فيقال: رعينا الغيث؛ من باب إطلاق اسم السبب علىٰ المسبب.

(**أصاب أرضًا**): يعني وقع عليها ونزل بها، ومنه قولهم: أصاب السهم الغرض إذا وافقه.

(**فكان منها نقية قبلت الماء**): نقية (صفة لمحذوف)؛ أي: طائفة نقية؛ والمراد بنقاوتها خصوبتها وخلوها من المواد الضارة بالنباتات، ومعنىٰ قبلت الماء: تشربته فربت وانتفخت وأنبتت من كل زوج بهيج.

(**وكان منها أجادب**): جمع جدب علىٰ غير قياس؛ وقيل: جمع أجدب الذي هو جمع جدب؛ كأعبد وأعابد.

والجدب انقطاع المطر ويبس الأرض؛ والمراد بالأجادب هنا الأرض الصلبة التي لا تتشرب الماء ولكنها تمسكه وتمنعه من الضياع.

(**قيعان**): جمع قاع؛ وهي الأرض المستوية الملساء قد انفرجت عنها الآكام والجبال.

(**فقه**) الشيء: الفقه: فهم الشيء والعلم به؛ وإنما قال: فقه (بضم العين) ليدل علىٰ أن الفقه صار له سجية وملكة، كما في شَرُف وكَرُم.

(**ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا**): هو (كناية) عن الإعراض والتكبر عن اتباع ما جاء به الرسول ﷺ فسره بقوله: (**ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به**).

المعنىٰ الإجمالي للحديث

اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن لا يجعل الناس بدرجة واحدة فيما قسم لهم من الحظوظ، بل جعلهم جد مختلفين في طبائعهم وأخلاقهم ومدىٰ تفكيرهم، ومختلفين في نياتهم ومقاصدهم؛ فهم أشبه شيء بتربة الأرض التي منها الخصب الجيد، ومنها الجديب الصلد، ومنها السبخ الرديء.

والرسول ﷺ في هذا الحديث العظيم يضرب المثل لشريعته الغراء الجامعة لكل خير، وتفاوت الناس في الانتفاع بهذا الخير تبعًا

لاختلافهم في درجات الفهم والرغبة في قبول ما جاء به من الهدىٰ والعلم بحال الغيث مع الأرض؛ بجامع أن كلا منهما مصدر للخير العام وسبب للحياة.

فكما أن المطر تحيا به الأرض بعد موتها، فكذلك لا حياة للقلوب إلا بنور العلم والحكمة.

وكما أن الأرض تختلف في قبولها للمطر الذي جعله الله حياة لها تبعًا لاختلاف معادنها؛ فيتفاوت انتفاعها بالمطر ويتفاوت تأثيره فيها تبعًا لتفاوتها في قبوله، فكذلك الشريعة خير كلها؛ فهي كالغيث في عموم نفعه، ولكن الناس ليسوا سواء أمام هذا الخير؛ وذلك بسبب تفاوتهم في وسائل الانتفاع به.

فمنهم : من قبل الحق وانطبع به فاهتدىٰ في نفسه ودعا إليه؛ فهو كالأرض الطيبة التي إذا نزل عليها الماء هشت له وتشربته، فسير فيها كامن الحياة، فتصبح مخضرة حافلة بالمرعىٰ الجيد الذي تأكل منه الأنعام فتسمن، ويكثر درها، ويعظم خيرها.

ومنهم: من هو غبي العقل، متبلد الفكر، لا يحسن الفهم والاستنباط، ولكنه وعاء للنصوص يحفظها ويرويها لغيره ممن

يحسنون فهمها والانتفاع بما فيها؛ فهو كالأجادب من الأرض التي وظيفتها إمساك الماء فقط كي يستقي منه الناس، ويسقوا زروعهم ودوابهم.

ومنهم: من أعرض ونأىٰ بجانبه، وتكبر عن قبول الحق واتباعه، ففاته الخير كله، فكان كالقاع الأملس؛ فلا هو ينتفع بالماء في نفسه، ولا هو يمسكه لينتفع به الناس.

فما أروع هذا المثل النبوي الكريم الذي يأخذ بمجامع القلوب، وما أحرانا أن نحرص علىٰ أن نكون من الفريق الأول الذي سعد بهذا الخير وأسعد به الناس.

نسأل الله أن يفقهنا في ديننا، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

١٨ الأيـــام العشـــر (*)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**ما من أيام العمل فيهن أحب إلىٰ الله عز وجل منه في هذه الأيام العشر؛ يعني: عشر ذي الحجة، فقال رجل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ولا الجهاد في سبيل الله؛ إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع بشيء**)[1].

شرح الحديث

روي هذا الحديث - كذلك - عن جابر رضي الله عنه بألفاظ تختلف - قليلاً - عما هنا؛ رواه عنه أبو يعلىٰ والبزار وابن حبان ولفظه عند ابن حبان: (**ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذي الحجة**؛ فقال رجل: هن

(*) الهدي النبوي - المجلد: ٣١ - العدد: ١٢ - ذو الحجة ١٣٨٦هـ.

[1] رواه الترمذي في كتاب الصوم (٧٥٨)، وابن ماجه في سننه (١٧٢٨) وليس فيه: (**إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع بشيء**).

وإنما ورد هذا من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عند البخاري في كتاب العيدين (٩٦٩).

أفضل أم عدتهن جهاداً في سبيل الله؟. **قال: هن أفضل من عدتهن جهاداً في سبيل الله)**[١].

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة علىٰ فضل الأيام العشر الأولىٰ من ذي الحجة، وأن العمل فيهن أفضل عند الله وأكثر ثوابًا وأعظم مضاعفة من مثله إذا عمل في غيرهن؛ كما أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه، وفي مسجد المصطفىٰ ﷺ بالمدينة المنورة بألف، وفي بيت المقدس بخمسمائة والله يضاعف لمن يشاء.

ولم يستثن رسول الله ﷺ من الأعمال شيئًا إلا الصوم فإنه في رمضان أفضل منه في هذه الأيام – قطعًا – لأنه صوم فريضة، وصوم هذه الأيام نافلة؛ ولا يعقل أن تعدل النافلة الفريضة.

ولما سمع الصحابة رضي الله عنهم ذلك عجبوا أشد العجب، وكانوا يرون الجهاد أفضل الأعمال؛ فإنه ذروة سنام الإسلام، فسأل رجل رسول الله ﷺ عن ذلك العموم الذي في الحديث؛ هل هو بالنسبة للجهاد أيضًا: فقال: (**ولا الجهاد في سبيل الله**)؟.

---

[١] رواه أبو يعلىٰ في مسنده (٢٠٩٠)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٥٣).

يعني: ولو كان العمل الذي يعمل في غير هذه الأيام جهاداً في سبيل الله يكون العمل فيها أفضل منه أيضًا؟. فقال النبي ﷺ: **نعم. ولا الجهاد في سبيل الله.**

ثم استثنىٰ من ذلك حالة واحدة يكون فيها الجهاد أفضل أو مساويًا، وهي حالة نادرة؛ وهي أن يخرج الرجل مجاهداً بنفسه وماله فلا يرجع من ذلك - كله - بشيء؛ بأن يقتل ويؤخذ ماله.

فمثل هذا الذي ضحىٰ بكل ما يملك من نفس ومال وصدق ما عاهد الله عليه، وبذل في ذاته أعز ما لديه؛ لا يعقل أن يكون - هناك - أفضل من عمله وهو ممن صدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾**﴾

[التوبة: ١١١].

والحاصل أن هذه الأيام العشر هي عند الله عز وجل بالمكان الذي لا يعدل به؛ فهي أفضل أيام الدنيا كما ورد بذلك الحديث.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلىٰ أن الليالي العشر التي أقسم الله بها في أول سورة الفجر هي ليالي عشر ذي الحجة.

ولا غرو أن تكون هذه الأيام بتلك المنزلة من الفضل والشرف، وأن تكون الأعمال فيها أحب إلىٰ الله من غيرها؛ فإن فيها تقع معظم أعمال الحج؛ حيث يذهب الناس إلىٰ منىٰ يوم الثامن من ذي الحجة – وهو يوم التروية – فيصلون بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويبيتون بها ليلة التاسع، ثم يذهبون إلىٰ عرفات فيقفون بها في ذلك المجمع العظيم الذي لا يتهيأ لهم مثله في يوم آخر ولا في مكان غير عرفة؛ يعجون بالتلبية، ويدعون الله عز وجل علىٰ اختلاف لهجاتهم؛ ولهذا يدنوا الرب – جل وعلا – منهم ويباهي بهم ملائكته.

وما رؤي الشيطان أصغر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة؛ وهو يرىٰ تلك الوفود الحاشدة التي جاءت من كل فج عميق قد وقفوا في صعيد واحد متجردين من كل زينة شعثًا غبرًا قد محصوا لله العبودية وجأروا إليه بألسنة الفقر والاضطرار، واستشعروا بين يديه الزلة والانكسار، وقد امحت بينهم الفوارق واختفت الألقاب والمظاهر.

فلا فرق بين سيد ومسود، ولا بين حاكم ومحكوم، ولا بين أمير وسوقة؛ بل كلهم في حكم العبودية سواء.

ثم يفيضون من عرفات بعد الغروب إلىٰ المزدلفة، فيصلون بها المغرب والعشاء، ويبيتون بها ليلة النحر، فإذا صلوا الفجر وقفوا بالمشعر الحرام يدعون ويتضرعون.

فإذا أسفر الصبح ذهبوا إلىٰ منىٰ لرمي الجمرة الكبرىٰ، ثم يرجعون إلىٰ رحالهم فينحرون هداياهم ويحلقون أو يقصرون، ثم يذهبون إلىٰ مكة ليطوفوا بالبيت طواف الركن؛ وهو ما يسمىٰ الإفاضة أو الزيارة.

فهذه الأعمال كلها وهي الحج كله – تقريبًا – تقع في الأيام العشر بل في الأيام الثلاثة الأخيرة منها، فهي أعياد متصلة؛ كما قال ﷺ: **(يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام؛ وهي أيام أكل وشرب)**[1].

---

(١) رواه أبو داود في الصوم (٢٤١٩)، والترمذي في الصوم (٧٧٣)، والنسائي في المناسك (٥/٢٥٢)، وأحمد في المسند (٤/١٥٢).

وقد اختلف الناس أيهما فضل يوم عرفة أم يوم النحر؟

فذهب البعض إلىٰ تفضيل يوم عرفة استناداً إلىٰ أحاديث وردت في فضله كقوله عليه السلام: (**صوم يوم عرفة أحتسب علىٰ الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده**)[١].

وكقوله ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها: (**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو - عز وجل - منهم يباهي بهم ملائكته فيقول: ما أراد هؤلاء**)[٢].

وكقوله عليه السلام فيما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه: (**ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة إلا ما أري يوم بدر**؛ قيل: ومـا رأىٰ يوم بدر يا رسـول الله؟ قـال: **أمـا إنه رأىٰ جـبـريل يزع الملائكة**)[٣].

<١> رواه مسلم في الصيام (١١٦٢)، وأبو داود (٢٤٢٥). وانظر الإرواء (٩٥٢).

<٢> رواه مسلم في الحج (٤٣٦).

<٣> رواه مالك في الموطأ في الحج ص ٤٢٢ مرسلا. وقال محققه: «ووصله الحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء».

وذهب كثير من المحققين إلىٰ أن يوم النحر أفضل من يوم عرفة ومن سائر أيام السنة – كلها – وذلك لكثرة ما يقع فيه من أعمال العبادة بالنسبة للحجاج وغيرهم، وما يراق فيه من دماء الهدايا والأضاحي علىٰ اسم الله عز وجل.

وقد رجح ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – هذا الرأي الثاني في كتابه الزاد[١]؛ ونصره، وطول في الاحتجاج عليه، وهو الرأي الذي نختاره ونطمئن إليه إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الحديث العظيم يحثنا أعظم الحث علىٰ أن نستقبل هذه الأيام العشر بما ينبغي من نشاط وهمة، وأن نجرد لها العزائم الصادقة، وأن ننتهز فرصتها حتىٰ لا تضيع منا هباء؛ فنملأها من أعمال البر التي يحبها الله – عز وجل – من صلاة وصيام وصدقة، وأن نكثر فيها من تهليل الله وتكبيره، ومن قراءة القرآن والدعاء، وصلة الرحم، وعون المحتاج، وبذل النصح، وغير ذلك من أنواع القربات.

كما ينبغي علىٰ إخواننا من أولي السعة أن يحرصوا علىٰ شراء أضحياتهم، وأن يحسنوا اختيارها؛ فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: (من

<١> زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ.

وجد سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا)[١] .

وفي حديث آخر ولو أنه ضعيف : (**ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم ؛ إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض ، فطيبوا بها نفسًا)**[٢] .

ومن كان عنده شيء يريد أن يضحي به ودخل العشر من ذي الحجة فلا يحل له أن يأخذ من شعره ولا من بشره شيئًا .

نسأل الله جلت قدرته أن يجعل هذه الأيام المباركة أيام خير ويُمن؛ وأن يعيد للإسلام عزه ومجده إنه ولي كريم .

وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم

❁ ❁ ❁

<١> رواه الدارقطني في سننه (٤ / ٢٧٧)، والبيهقي في سننه (٩ / ٢٦٠) . وانظر نصب الراية (٤ / ٢٠٧) .

<٢> أخرجه الترمذي في سننه : كتاب الأضاحي، ١- باب ما جاء في فضل الأضحية، رقم ١٤٩٣ (٥ / ٢٠٣)، وبنحوه أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأضاحي ٣- باب ثواب الأضحية، ح ٣١٢٦ (٢ / ١٠٤٥) . وفي سنده أبو المثنى سليمان بن يزيد وهو ضعيف .

⊂ ١٩ ⊃ إياكم ومحدثات الأمور (*)

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون؛ فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: (**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة؛ وإن تأمر عليكم عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**)[1].

شرح الحديث

(**العرباض بن سارية**): صحابي جليل، وهو أحد السبعة الذين عذرهم الله ـ عز وجل ـ في تخلفهم عن غزوة تبوك، وأنزل فيهم قوله

(*) الهدي النبوي – المجلد : ٣٢ – العدد: ١ – محرم ١٣٨٧هـ.

[1] رواه أحمد (٤/ ١٢٦ – ١٢٧)، وأبو داود في السُّنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وابن ماجة في المقدمة (٤٢)، والدارمي في المقدمة (١/ ٤٤).

وقال الترمذي: « حديث حسن صحيح ».

تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

[التوبة: ٩٢].

وكان سبب روايته لهذا الحديث أن نفرًا من التابعين زاره في بيته، ثم رغبوا أن يحدثهم بشيء مما سمعه من رسول الله ﷺ فأتحفهم بهذا الحديث العظيم الذي يتضمن من الوصايا الجامعة والقواعد النافعة ما لو تمسك به المسلمون - بعد نبيهم ﷺ - لما اشتبهت عليهم السبل، ولا مزقتهم الخلافات والأهواء.

ويمهد العرباض رضي الله عنه لهذه الوصية فيذكر أن النبي ﷺ كان قد وعظهم موعظة بلغ من قوة تأثيرها أن وجلت منها القلوب؛ يعني: تملكها الفزع والخوف الشديد، وأن ذرفت منها العيون؛ أي: فاضت بالدمع الغزير.

فلما سمعوا منه تلك الموعظة ورأوها علىٰ غير المألوف من مواعظه أحسوا بدنو أجله، وقرب مفارقته إياهم، فدفعهم حرصهم علىٰ الخير أن يطلبوا منه وصية يعتصمون بها بعده، ويجعلونها دستوراً ومنهاجًا لهم يقيهم من ورطات الضلال والانحراف؛ فعهد إليهم بتلك

النصيحة الغالية، التي تدل علىٰ عظيم شفقته بأمته، وحرصه علىٰ خيرها وسعادتها.

* **فأمرهم أولا**: بتقوىٰ الله؛ وهي كلمة جامعة يدخل فيها فعل كل مأمور به، واجتناب كل منهي عنه؛ فإن كل ما أمر الله به فقد أحبه ورضيه، وكل ما نهىٰ عنه فقد كرهه وسخطه. ولا يمكن أن تنال التقوىٰ كاملة مع فوت شيء من المحبوبات، أو فعل شيء من المكروهات؛ فإن ذلك موجب لعذاب الله وسخطه، ومن عرض نفسه لعذاب الله لا يقال إنه اتقاه؛ ولذلك كانت التقوىٰ درجات كثيرة.

ولكل إنسان من التقوىٰ بقدر ما أطاع الله ـ عز وجل ـ فيه؛ امتثالا لأمره، واجتنابا لنهيه؛ ولهذا يكثر في القرآن الكريم أن تذكر التقوىٰ وحدها ويرتب عليها الفوز من كل مرغوب، والنجاة من كل مرهوب؛ كقوله تعالىٰ: ﴿**لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾**﴾

[آل عمران: ١٥].

وكقوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾**﴾ [الأنفال: ٢٩].

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٠ - ٣٢].

وقد تقترن التقوىٰ بغيرها كما قرنت بالصبر في قوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

وبالإحسان في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

وبالصدق في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

ولكن ليس معنىٰ هذا أن هذه الأمور خارجة عن التقوىٰ، بل هو من ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بشأنه.

* **ثم أمرهم ثانيا**: بالسمع والطاعة لمن ولاهم الله أمرهم؛ فإنه كما يجب القيام بحق الله في التقوىٰ يجب القيام للولاة بحقهم في السمع والطاعة ماداموا لا يأمرون بمعصية الله تعالىٰ؛ فإنه لا طاعة إلا في

معروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ**﴾ [النساء: ٥٩].

قال المفسرون: ﴿**أُولِي الأَمْرِ**﴾ هم العلماء والأمراء.

وولي الأمر واجب الطاعة أيا كان جنسه أو لونه؛ حتىٰ ولو كان عبداً مجدع الأطراف كأن رأسه زبيبة؛ فإن شق عصا الطاعة والخروج علىٰ الجماعة تمزيق للصفوف، وتقطيع للأواصر، وتمكين لأعداء الإسلام أن يدخلوا بدسائسهم ومكايدهم لإذكاء نار الفرقة والاختلاف حتىٰ يستفيدوا هم من وراء ذلك.

نعم.. يجب علىٰ العلماء تبصير الولاة بمواطن الحق والعدل إن خيف منهم جنوح إلىٰ باطل أو ميل إلىٰ جور، وأن يكون ذلك في رفق وهوادة؛ رعاية لحرمة الولاية؛ فإن الله رفيق يحب الرفق، ويعطىٰ علىٰ الرفق ما لا يعطي علىٰ العنف، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

ثم أوصاهم ثالثا: إذا هبت رياح الفتنة، وتشعبت بالناس الأهواء، ونجمت قرون الضلالة: أن يستمسكوا بسنته ﷺ – يعني بطريقته وهديه – وبسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، وأن يحرصوا علىٰ

ذلك حرصهم علىٰ الحياة نفسها؛ فإن السنة هي قارب النجاة الذي يوصل إلىٰ شاطئ الأمان والسلامة، ويعصم من الغرق في لجج الضلال وطوفان الفتنة.

و(**السنة**): هي كل ما ترك النبي ﷺ لأمته في الاعتقاد والعمل جميعا؛ فهي تشمل هديه كله، فنصدق بكل ما أخبر عنه من أسماء الله ـ عز وجل ـ وصفاته وأفعاله، ولا نتجاوز ما حده لنا في ذلك؛ فلا نثبت لله من الأسماء والصفات إلا ما نعلم أنه أثبته، ولا ننفي إلا ما نعلم أنه نفاه. ونصدق ـ كذلك ـ بكل ما أخبر عنه من الحقائق الغيبية التي لا تعلم إلا من طريقه، ولا نعارض شيئًا من أخباره بقياس عقولنا، ولا بأقوال شيوخنا، ولا بفلسفات أجنبية دخيلة علىٰ ديننا، كما فعله أهل الكلام الباطل، فضلوا به وأضلوا.

ثم ننظر كيف كان هديه في صلاته؛ فنصلي كما كان يصلي هو، وهكذا في سائر العبادات. وكيف كانت معاملته لأهل بيته ولأصحابه ولأعدائه؛ فنجتهد في أن نتخلق بما كان عليه من خلق عظيم؛ هو المثل الأعلىٰ الذي يجب أن نهدف إلىٰ تطبيقه علىٰ كل شؤون حياتنا، كما فعل سلفنا الصالح ـ رضي الله عنهم ـ في إحياء سنته والتزام طريقته.

وكذلك نأخذ بما سنَّه لنا خلفاؤه الراشدون، الذين كانوا أعرف الناس بسنته، وأشدهم أخذاً بها؛ فإن طريقتهم وهديهم لا يمكن أن تخالف طريقته وهديه، بل لا تكون إلا تكميلا وامتداداً لها.

وأخيراً: حذرهم أشد التحذير من الأمور المحدثة التي ابتدعت بعده علىٰ خلاف طريقته وهديه، وبين لهم أن ذلك كله ضلال وخروج عن سواء السبيل.

نسأل الله أن يجعلنا ممن أحسن الاتباع لهديه، وأن يقينا شر الابتداع بمنّه وكرمه.

٢٠ الخصال المؤدية لظل العرش (*)

عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما - أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **(سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتىٰ يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلىٰ نفسها؛ فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه)**[1].

[متفق عليه].

(*) الهدي النبوي - المجلد: ٣٢ - العدد: ٢ - صفر ١٣٨٧هـ.

[1] رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه مالك في الموطأ في الشعر ص ٩٥٢ - ٩٥٣ رقم (١٤)، عن أبي سعيد أو أبي هريرة. على الشك من الراوي.

شرح الحديث

قال ابن عبد البر: هذا أحسن حديث يروىٰ في فضائل الأعمال وأعمها وأصحها؛ وقد اختلف في المراد بظله هنا، فجنح قوم إلىٰ التأويل بلا موجب ولا دليل؛ فمنهم من قال: المراد به رحمته، ومنهم من قال: حمايته وكرامته. والصحيح الذي عليه الأكثرون: أن المراد به ظل عرشه للتصريح به في كثير من الأحاديث، ولأن المراد وقوع ذلك في الموقف حين يحتاج الناس فيه إلىٰ الظل عندما تدنو الشمس من رؤوس الخلق، ويلجمهم العرق، فيكون هؤلاء السبعة بمنجاة من هذا الكرب الشديد جزاء لهم علىٰ اتصافهم بهذه الخصال العظيمة.

وقد جزم بهذا القول القرطبي، ورجحه ابن حجر وضعف قول من قال: المراد به ظل طوبىٰ أو ظل الجنة؛ لأن ظلهما إنما يحصل بعد استقرارهما في الجنة. ثم إنه مشترك بين جميع من يدخلها مع أن سياق الحديث يدل علىٰ امتياز أصحاب الخصال المذكورة .

قال الحافظ ابن حجر: وقد وقع في صحيح مسلم من حديث أبي اليسر مرفوعا: (**من أنظر معسراً أو وضع له، أظله الله في ظله يوم**

لا ظل إلا ظله)[١]؛ وهاتان الخصلتان غير السبعة المذكورة في الحديث، فدل علىٰ أن العدد المذكور لا مفهوم له.

وقد زعم السيوطي أنه بلغ بتلك الخصال إلىٰ السبعين، وألف فيها كتابا سماه: (تمهيد الفرش في الخصال المؤدية إلي ظل العرش)؛ معتمداً في ذلك علىٰ آثار واهية أو موضوعة .

وعلىٰ كل حال فليس في الحديث ما يدل علىٰ انحصار هذا الوعد في أصحاب الخصال المذكورة؛ وإن كان يفيد دخولهم فيه دخولاً أوليا.

وإنما استحق هؤلاء أن يمتازوا عن جميع أهل الموقف بهذه المنقبة العظيمة؛ لأن كل واحدة من هذه الخصال تشهد لصاحبها بأنه بلغ في الإيمان الدرجة التي توجب له محبة الله؛ ومن أحبه الله آواه إلىٰ ظله وحماه، وحفظه من السوء ووقاه .

* **أما الصنف الأول**: وهو الإمام العادل، فإن العدل هو أساس خصال الخير كلها، وهو الميزان الذي توزن به خيرية الرجل وشريته، فمن كمل عدله كمل خيره، ومن لا عدل عنده فلا خير فيه.

<١> رواه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٦) ضمن حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر.

ويكفيك دليلاً علىٰ شرف العدل وعظيم خطره أن ضده وهو الظلم: أقبح خصال الشر وأفحشها، وهو قطب رحاها الذي تدور حوله، وينبوعها الذي تنبع منه.

والعدل مطلوب من كل أحد في كل حال: أن يعدل مع نفسه فيعطيها حقها من العلم والمعرفة، ويزكيها من رجس الشهوات وقبح العادات، ويسمو بها عن الدناءات.

وأن يعدل مع أهله وولده فيحوطهم ويرعاهم، ويقوم لهم بما يكفيهم، ويسوي بينهم، ويأخذهم بآداب الشرع من المحافظة علىٰ الفرائض واجتناب المآثم؛ قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

وأن يعدل في قوله فلا يشهد زوراً ولا يقول كذباً؛ قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وأن يعدل في حكومته إذا حكم بين متخاصمين؛ فلا يجور ولا يحيف؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨].

وأن يعدل في كل ما وليه من عمل أو وظيفة؛ قال عليه الصلاة السلام: (**إن المقسطين علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**)[١].

وإذا كان العدل بهذه المنزلة، وكان مطلوبًا من كل أحد؛ فلا شك أنه من الأئمة الذين يلون أمور الناس ومصالحهم يكون أشد طلبا؛ لأن نفعه وخيره يكون عامًا شاملا. وإذا كان الجزاء علىٰ العمل إنما يحسب بمقدار ما فيه من خير ونفع؛ فلا غرو إذا استحق الإمام العادل أن يكون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

* **وأما الصنف الثاني**: فهو شاب نشأ في عبادة الله، يعني أنه قهر دواعي نفسه الأمارة بالسوء، وكفكف من غربها[٢]، ولم يسترسل معها في غيها، ولم يسم سرح اللهو[٣] حيث يسيم مثله من الشباب، بل ألزم نفسه القيام بوظائف العبادة، وحصرها في سجن الطاعة، وهو

<١> رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧).

<٢> كفكف من غربها: الكفكفة: الكف والمنع. والغرب: غرب الشيء حدّته.

<٣> يسم سرح للهو: يسم: يرعىٰ. والسرح: المال السائم، والمرعىٰ كثير الأشجار، وفناء الدار. والمعنىٰ أنه ضبط نفسه، ولم يتركها علىٰ هواها كالسائمة التي ترعىٰ حيث شاءت.

في السن الذي تثور فيه الشهوات علىٰ صاحبها، وتحاول التفلت والانطلاق من جميع القيود والسدود . فلا عجب إذا كان هذا الشاب الذي نهىٰ نفسه عن هواها ولم يرخ لها في خطام أحلامها ومناها، وحجزها عن كل ما يشينها ويدسيها، ثم راضها علىٰ القيام بالتكاليف رغم كراهتها واستثقالها، لا عجب أن يكون هو كذلك في ظل الله عز وجل.

* **وأما هذا الذي قلبه معلق بالمسجد** : فلا يخرج منه بعد أداء الصلاة إلا وفي نيته أن يعود إليه؛ فهو يجد في المسجد راحة قلبه، وطمأنينة نفسه، فيحن إليه كما يحن الطائر إلىٰ وكره[١]، والصبي إلىٰ حضن أمه، فهذا دليل علىٰ كمال الإيمان في قلبه، وعلىٰ أنه يرىٰ في الصلاة قرة عينه. وقد قال ﷺ: (**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان**)[٢].

وقال: (**من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له نزلا من الجنة كلما غدا أو راح**)[٣].

<١> الوكر: عش الطائر.

<٢> رواه ابن ماجة في المساجد (٨٠٢). وإسناده ضعيف.

<٣> رواه البخاري في الأذان (٦٦٢)، ومسلم في المساجد (٢٨٥).

وقال تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]. ولا شك أن ذلك ليس قاصراً علىٰ العمارة الحسية، بل يشمل العمارة المعنوية بالصلاة، وذكر الله، ومدارسة العلم، بل لعل الأخيرة هي الأهم.

فمثل هذا الذي قلبه مربوط بالمسجد أينما كان في بيته أو في محل عمله؛ وهو طبعا ما أحب المسجد إلا لما يقوم به فيه من عبادة الله وذكره، يكون خليقا أن يظله الله في ظله .

*أما هذان اللذان تحابا في الله - عز وجل -: فلا يجتمعان ولا يفترقان إلا علىٰ ذلك؛ فهو دليل علىٰ كمال محبتهما لله؛ فإن الحب فيه وله سبحانه فرع محبته في نفسه، فلولا ما امتلأ به قلبهما من محبة الله - عز وجل - لما أحب كل منهما أخاه من أجله جل شأنه.

وقد روىٰ مالك في الموطأ عن أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**يقول الله تبارك وتعالىٰ: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ**)[1].

<1> رواه مالك في الموطأ في الشعر ص ٩٥٣ - ٩٥٤ رقم (١٦). وأحمد في مسنده (٥/ ٢٣٢، ٢٤٧).

وفي الحديث الآخر: (**أين المتحابون في جلالي؟ لأظلنهم اليوم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**)[١].

* **وأما هذا الذي ذكر الله خاليًا**: أي: منفردًا عن الناس؛ فذكر مقامه بين يديّ ربه وموقفه للسؤال والحساب ففاضت عيناه بالدمع من خشيه الله ـ عز وجل ـ وشوقًا إلىٰ لقائه، وطمعًا في جنته، وخوفًا من ناره، فقد شهد له ذلك برقة القلب وحياته، وقوة إيمانه بوعد الله ووعيده؛ حتىٰ كأنه يرىٰ ذلك رؤيا العين، فهو يحسب للقاء الله ـ عز وجل ـ ألف حساب، ولا يدري ماذا سيكون حاله عند هذا اللقاء؛ فتجود عيناه بالدمع الغزير خوفًا من سوء المصير، وقد شهد له ذلك ـ أيضا ـ بقوة مراقبته لله ـ عز وجل ـ وكمال تقديره للمسؤولية؛ فمثل هذا لا يظن به أن يفرط في واجب؛ ولا أن يقدم علىٰ قبيح، ولا أن يبغي أو يظلم.

وقد جاء في الحديث: (**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**)[٢].

<١> رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٦).

<٢> رواه الترمذي في الجهاد (١٦٣٩). وقال: « حديث حسن ».

فهو لا شك حقيق أن يكون من السبعة الذين يظلهم الله بظله، يوم لا ظل إلا ظله.

* **وأما هذا الذي دعته أي: طلبته امرأة ذات حسب وجمال إلىٰ نفسها**؛ يعني: أنها هي التي راودته عن نفسه ولم يكن هو الذي راودها عن نفسها، وهي مع ذلك قد اجتمعت لها كل أسباب الفتنة والإغراء؛ فهي أولا: ذات حسب عريق وليست من سوقة النساء، وهي ثانيا: ذات جمال بارع يذهب بالألباب، ولكنه رغم إلحاح الفتنة عليه وإحاطتها به من كل جانب؛ لم يتردد حين دعته هذه المرأة إلىٰ نفسها؛ أن يقول لها في لهجة صارمة وعزيمة صادقة: إني أخاف الله.

فمثل هذا الذي بلغ خوفه من الله ومراقبته له هذا الحد الذي تحطمت علىٰ صخرته أعتىٰ أمواج الشهوة، وأقوىٰ دواعي الفتنة؛ قد وصل إلىٰ مقام الصديقية وصار أخًا ليوسف بن يعقوب عليهما السلام، حين قال لامرأة العزيز وقد راودته عن نفسه: ﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣]، وصار بذلك أهلا لأن يكون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

* **وأما آخـر الأصناف**: فهـو ذلك الرجل الذي يبلغ في التخفي بصدقته، بعداً بنفسه عن مظلة الرياء وطلبًا لفضيلة الإخلاص، حتىٰ تقع موقعها من القبول عند الله ـ عز وجل ـ فيجتهد في إخفائها إلىٰ الحد الذي لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

ولا شك أن ذلك دليل علىٰ حرصه علىٰ قبول عمله وحياطته من كل ما يوجب حبوطه وبطلانه، ودليل علىٰ حبه للخير ورغبته فيه .

فمثله جدير بأن يكون يوم القيامة في ظل صدقته، وفي ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله.

نسأل الله ـ سبحانه ـ أن يجعلنا وإخواننا من الذين يتخلقون بهذه الأخلاق العالية التي تورث أصحابها الأمن والاهتداء إنه سميع الدعاء.

فهـــرس الموضـوعات

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة المُعد	٥
ترجمة الكاتب	٧
مقدمة الكاتب	١١
* الحديث (١) : إنما الأعمال بالنيات	١٣
* الحديث (٢) : الحلال بيِّن والحرام بيِّن	٢٣
* الحديث (٣) : لا حسد إلا في اثنتين	٣١
* الحديث (٤) : فضيلة الصيام	٣٨
* الحديث (٥) : من حج فلم يرفث ولم يفسق ...	٤٨
* الحديث (٦) : استوصوا بالنساء خيرًا	٥٥
* الحديث (٧) : المسألة سحت	٦٧
* الحديث (٨) : التحذير من الفتن	٧٧
* الحديث (٩) : تعاطف المؤمنين وتراحمهم	٩٠

الموضـــــوع	الصفحة
* الحديث (١٠) : مـثـل المؤمن والكـافـر.....	٩٨
* الحديث (١١) :مـثل البـخـيل والمـنفق.....	١٠٧
* الحديث (١٢) :عـقـوق الأمـهـات.....	١١٧
* الحديث (١٣) :الكلمـة الطيبـة صـدقـة....	١٢٧
* الحديث (١٤) :مـثل القـائم علىٰ حـدود اللّه.	١٣٨
* الحديث (١٥) :تحـويل القـبلـة.....	١٤٦
* الحديث (١٦) :المؤمـن القـوي.....	١٥٧
* الحديث (١٧) :الـهـدىٰ والـعـلـم.....	١٦٥
* الحديث (١٨) :الأيـام العـشـر.....	١٧٢
* الحديث (١٩) :إياكم ومـحـدثات الأمـور.....	١٨٠
* الحديث (٢٠) :الخـصـال المؤدية لظل العـرش	١٨٧
الفـهرس	١٩٧

☆☆ ☆ ☆☆

التنضيد الضَّوْئي والإخراج
أبو هشام عبد الملك رمضان عرابي
054190173